ي حقي
نِسَاءُ
صَنَعْنَ التَّارِيخ
Bibliotheca Alexadrina
0276004

نساء صنعن التاريخ

اهداءات ٢٠٠٠
ا.د.رشيد سالم الناضورى
أستاذ التاريخ القديم
جامعة الإسكندرية

مُزَيِّن حقي

نِساءٌ صَنعْنَ التاريخ

١

١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م

الطبعة الأولى
١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى السيدة الكبرى بخلائقها ومكارمها وسجاياها في البلاد المقدسة .

إلى أم السعوديات والسعوديين ، الملكة الصالحة « عفت الثنيان » حرم مليكنا العظيم فيصل .

أهدي سِيَرَ نساءٍ هنّ أكرم نساء الأرض وأشرفهن وأعظمهن في الخلائق والفضائل والآداب والمكرمات .

مكة المكرمة

الاربعاء : ١٢ ربيع الأول ١٣٨٩ هـ
٢٨ مايو ١٩٦٩ م

مزين حقي

المقدّمة

هذه سِيَرٌ بعض النساء المسلمات ، اللاتي شاركن في صنع تاريخ الإسلام في خير عهوده ، ألا وهو القرن الأول ، وكنّ نماذج للمرأة الفاضلة الصالحة ، نشرت بعضها في جريـــدة « عكاظ » عندما كانت ملْك زوجي ، ونشرت سيرة ذات النطاقين أسماء بنت أبي بكر الصديق رضيَ الله عنهما في مجلة زوجي المسماة « كلمة الحق » التي وقفها هو نفسه لخسارة مالية جسيمة لحقته بسببها .

وكنت كتبت سيرة سيدتنا عائشة وسير الأخريات مما لم يسبق له نشر لتنشر في مجلة « كلمة الحق » ولكن وقفها حال دون ذلك .

ورأى زوجي أن تنشر هذه السير في كتاب ، لأن الحاجة إلى معرفة صاحباتها من قبَل نساء هذا العصر مُلحّة ، فأغلبهن لا يعرفن تاريخ المرأة المسلمة وسيرتها ومكانتها في المجتمع الإسلامي .

وإن نشرها في كتاب يتيح لنساء هذا العصر الوقوف على

تاريخ أمهاتهن اللاتي شاركن الرجال في بناء صرح الإسلام وحضارته العظيمة ، وفي نشر دعوته الإنسانية ، وتضلّعن من علومه ، وكنّ نماذج في حياتهن الخاصة والعامة .

والإسلام أعطى المرأة كل حقوقها ، ولم تتخلف المرأة المسلمة عن الرجل المسلم منذ نُبّئ رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى ، فقد حملت سيدتنا الكبرى أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها عبء الدعوة مع زوجها المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وساندته بشرفها وجاهها ومالها وتجارتها ، كما شاركته ابنته العظيمة فاطمة الزهراء ، ثم أمهات المؤمنين وفي مقدمتهن عائشة .

ولم تقتصر المشاركة على آل بيته من النساء ، بل تجاوزتهن إلى المسلمات ، فشاركن رسول الله في ميدان الدعوة وميدان الجهاد ، وكنّ فيهما من المبرّزات .

وركب بعضهن البحر جهاداً في سبيل الله ، ورغبة في إعلاء كلمته .

ولم أختر تراجم من كتبت فيهن ، فهناك نساء أخريات كأمهات المؤمنين لهن فضل مشهود في مشاركة بناة الإسلام ودعاته في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وعصور الخلفاء الراشدين ، كما أن هناك أخريات في كل عصور الإسلام حتى اليوم .

وتاريخ الإسلام مشرق بسير النساء المسلمات المبرزات في ميدان الدعوة وفي ميدان الجهاد ، وفي كل حقول الحيـــاة ، وشاركن الرجال في بناء مجتمع الإسلام المثالي ، وصنعن تاريخ

الإسلام وتاريخ الإنسان والحياة ، ولكن أُهملت المرأة المسلمة منذ العصور المتأخرة القريبة ، فلم يعد لأولئك النساء ذكر حي مشهور في واقع المسلمين .

ومع هذا لم يخل كل العصور الإسلامية حتّى العصور المتأخرة من أفراد من النساء برّزن في الحياة والمجتمع بكل الأقطار المسلمة ، وكان لهن الفضل في تقدم المجتمع الإنساني المسلم .

وجدير بنا أن نعنى بتاريخ النساء اللاتي بنيْنَ صرح الإسلام وصنعن تاريخه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين ، وصحابته الغر الميامين ، فكنّ أفضل نساء الأرض في الفضيلة والعفة والعقل والذكاء ، وفي كل الصفات الكريمة والأخلاق الفاضلة ، وفي العلوم المختلفة ، وفي الحروب .

ولعل الله ينعم عليّ بعونه الجميل فأعرض سير غير من كتبت ، وأنشرها في أجزاء قادمة بفضله وكرمه ، لترى نساء عصرنا أمهاتهن اللاتي هن خير النساء في الأرض ، فيكون لنا من سيرهن العطرة الساطعة ما يدفعنا إلى العمل الصالح ، والتخلق بأخلاقهن ، والتحلي بفضائلهن ، وينير لنا طريق العمل ؛ ويساعدنا على بناء مجتمعنا الجديد على أساس الخير والفضيلة والحق والعدالة والجمال .

ولا أقصد بمجتمعنا المجتمع السعودي ، بل أقصد مجتمع كل قطر إسلامي ، فهو في حاجة إلى أن يعيد النظر في مواد بنائه ، ويبعد عنه المواد التي لا تصلح لإقامة مجتمع إسلامي فاضل .

أما المجتمع السعودي فهو المجتمع المعاصر الوحيد القائم على أساس الإسلام الحق ، لأنه مجتمع يؤمن بالله ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ولا نجد فيه غير القرآن إماماً ، وغير هَدْي رسول الله صلى الله عليه وسلم سنّة ، وغير الإسلام شريعة وعقيدة وفقهاً وآداباً وسلوكاً وأخلاقاً وأشواقاً .

ولو كانت مجتمعات الأقطار الإسلامية مثل المجتمع السعودي المسلم الذي يعتصم بالشريعة ، ويعلن في الدنيا أن الإسلام شرعه ومنهاجه ، وهو ميثاقه الذي واثق عليه لكان المسلمون قوة أخلاقية خيّرة بين قوى المادية الشريرة تكبح من جماحها فلا تكبو ، وتهديها إلى الرشد أو بعضه فلا تضل ضلالها ، وتضبط الموازين فلا تضطرب .

ولكنها — مع الأسف — مجتمعات لا تعتصم بالشريعة الإسلامية ، ولا تلتزم أحكامها وآدابها وأوامرها ونواهيها ، ولا تحكم بما أنزل الله سبحانه وتعالى . بل تحل ما حرم ، وتحرم ما أحل تقليداً للغرب والشرق ، فانتهى بها بعدها عن الإسلام إلى الإنحلال الخلقي الذي أودى بها . كما أدى بها عزلها الإسلام عن الحكم إلى الضّعَة والهوان وفقدان الشخصية، وزاد من هوانها ترصّد قوى الشر والانحلال خطوات المسلمين ، وتصدّيها للدعاة .

وإذا عاد إلى المجتمعات الإسلامية ما فقدت من الإيمان بصلاح دينها الحنيف للحياة عاد إلى الحياة الإنسانية عامة وإلى المجتمعات الإسلامية خاصة بشاشتها وأمنها وطمأنينتها وسعادتها .

ومن أعظم مقومات الحياة الإنسانية صلاح المرأة ، فإذا صلحت صلح المجتمع ، واستقامت الحياة بما فيها ومن فيها ،

وإذا فسدت تفسد الحياة ، ولا يمكن صلاح مجتمع لا تشارك المرأة الصالحة الرجل الصالح في بنائه وحراسته . كما لا يمكن نجاح مجتمع تتخلف المرأة فيه .

والمرأة شقيقة الرجل ، وكل منهما يتمم الآخر ، ومن المحتم أن يشتركا في عمارة الأرض . وإقامة المجتمع ، وتقويم الأخلاق ، وبناء الحضارة .

وهكذا كان الإسلام بالنسبة للمرأة والرجل ، التكاليف والحقوق والواجبات واحدة ، وسير من ذكرت من النساء تقيم الدليل على المساواة بينهما ، والرجال والنساء بعضهم أكفاء بعض .

ويجب على المرأة المسلمة أن تجعل من هؤلاء النساء وغيرهن من أمهات المؤمنين والصحابيات والتابعيات ونساء الصحابة والتابعين القدوة إذا أردن الحياة الكريمة القائمة على أسس الضمير والأخلاق ، وإذا رغبن في بناء مجتمع سليم فاضل .

أما الاقتداء بنساء الغرب فلم يؤد إلا إلى انهيار أخلاق المجتمع ، وهدم القيم الأخلاقية الرفيعة .

والفارق بين المجتمع الذي يبنيه الإسلام والمجتمع الذي يبنيه غيره أن الإسلام يقيمه على الأخلاق الكريمة مع العلم النافع ، وغيره يقيمه على العلم وحده .

وإن انفراد العلم في قيادة المجتمع دون الأخلاق ينتهي به إلى ما انتهى به في الغرب والشرق المنحلين خلقياً .

ولو كانت القيادة للأخلاق والعلم لنجا المجتمع الغربي والشرقي من الفوضى الأخلاقية ودمار المُثُل العالية والقيم الرفيعة وهتك الأعراض وفساد الضمير . وضعف العقيدة الدينية .

والمرأة في المجتمع الشرقي والغربي ومجتمعات الأقطـار الإسلامية التي أخذت باجتماعيات الحضارة الحديثة قد سقطت سقوطاً بشعاً ، وسقط بسقوطها المجتمع كله ، فلا خلق ولا شرف ولا ضمير .

ولا منقذ للبشرية غير الإسلام بأوامره السمحة ، وتكاليفه الرضية ، ونواهيه التي يراد منها حراسة الإنسان وحمايته من كل أذى يصيب الجسم والعقل والضمير والوجدان .

ويجب على المرأة المسلمة أن تكون مسلمة حقاً ، تأخذ نفسها به في كل أمر من أمورها ، وإلا انحدرت .

والإسلام لم يمنع المرأة من كل ما هو خير ، بل دفعها إليه دفعاً ، وآية ذلك خديجة وفاطمة وعائشة وغيرهن ممن ترجمت لهن ترجمة موجزة وممن لم أترجم ، فقد بلغن في الأخـلاق والآداب والفنون والعلوم مبلغاً عظيماً ، وزادهن العلم والأدب والفن شرفاً إلى شرف الأخلاق .

وبعد ، لولا فضل زوجي لما استطعت إعداد هذا الكتاب وطبعه ، فهو صاحب الفضل كله ، علمني وأدبني ، وما لي من فضل فهو منه وإليه .

وأرجو من الله أن ينفع بما كتبت وأكتب ، والله الموفق لما فيه الخير والسداد .

مكة المكرمة — مزين حقي

المرأة الإسلام كله

خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ، من أشهر نساء قريش ، وممن كانوا يعيشون على التجارة ، ولما ترملت رغبت عن الزواج من كبار أهل مكة ، واهتمت بتجارتها وتنميتها ، ولعلها لم ترغب في أحد ممن تقدم إليها يطلب يدها لأن الدافع كان اسمها وكسبها .

وكان محمد بن عبد الله مشهوراً بين فتيان قريش وأهل مكة عامة بالأمانة والعفة والخلائق الفاضلة وكانت خديجة في حاجة إلى من يسافر بتجارتها إلى الشام ، وكانت تنتدب رجالاً للسفر تلقاء أجر سخي .

فرأت أن تتفق مع محمد بن عبد الله للسفر ، وبعثت إليه تعرض عليه ما عنّ لها ، وتعطيه من الأجر ضعف ما كانت تعطي غيره ، وأن تجعل غلامها «ميسرة» في صحبته ، يكون له عوناً في رحلته .

واستشار محمد عمه أبا طالب ، فأشار عليه بأن يمضي إلى ما كان قد رأى المضي فيه من الاتفاق مع خديجة .

ورحل محمد بتجارة خديجة إلى الشام ومعه ميسرة ، فباع واشترى ، وأكرمه الله بربح وفير ، ورأى ميسرة أسلوب

محمد في البيع والشراء ، فلم يره كغيره من الناس ، بل وجده نمطاً خاصاً بين الناس ، فلم يجد من محمد غشاً في البيع ، ولا كذباً في ترويج البضاعة ، ولا أيماناً فاجرة في إنفاق السلعة ، ولا أي شيء مما يتخلق به التجار لابتزاز الأموال بالكذب والغش والتدليس .

بل رأى منه الصدق الذي لم يشهده في أحد ، والعفة التي ندر وجودها ، وحسن المعاملة ، والسماحة ، واللطف ، والبشاشة ، والبعد عن كل ما يشين من الصفات ، فتعلق ميسرة بمحمد إعجاباً بما رأى منه وسمع .

وعاد محمد رابحاً ، وأسلم خديجة ما انتهى اليه من رأس المال ومن الربح ، فهال خديجة ما رأت ، فالتجارة قد ربحت ربحاً عظيماً ، لم تربحه فيما سبق ، وفتنها من محمد هذه الأمانة التي أعقبت كسباً كثيراً ، وأعطت محمداً ما وعدته ، أعطته الضعف كما وعدت ، ثم أضعفت الضعف لا هبة منها ، بل اعتقاداً منها أن ذلك من حق محمد على نشاطه وأمانته .

وتحدّث ميسرة إلى سيدته ، حدثها عن محمد ، وما سمع منه ورأى في رحلته ، وأسلوب تعامله مع الناس ، ووصف لها صفات محمد وخلائقه ، فزاد من إعجاب خديجة به ، وشغل تفكيرها ، وجعلها شديدة الاهتمام به ، فهي ترى إنساناً تمت له مكارم الأخلاق التي جعلته أعلى نموذج بين شباب قريش ، وتفرد بها بين أهل مكة جميعاً .

وفكرت في الزواج منه ، فهو خير وأبقى من كل من تقدموا إليها ، وليس من عار على المرأة الشريفة أن تخطب يد من ترغب فيه ما دام المثل الذي تنشده بين الرجال ، فبعثت

إلى محمد تعرض عليه ما تريد .

ولم يكن محمد يجهل حسب خديجة ونسبها ، ومكانتها في قريش ، وفضلها بين النساء ، فهي سيدة كريمة عفيفة طيبة سمحة ، لم يحجر قلبها الذهب الذي تملك ، ولم تفسد خلائقها الأصيلة الفاضلة هـذه التجارة وهذا الامتياز الذي تميزت به : مال ، وصحة ، وجمال ، ونسب ، وحسب ، وخلـق كريم .

كان محمد يعرف ذلك منها ، فلما انتهت إليه رغبتها فيه لم يتردد ، ولم يصده عنها فارق السن ، فهي في الأربعين ، وهو في الخامسة والعشرين ، بل رضي بها زوجاً ، ورضي بنو هاشم ، وتم عقد الزواج .

وسعدت خديجة بجوار محمد كما سعد هو بجوارها ، ونعيم الزوجان بحياة سعيدة ، فقد كان كل منهما مفتوناً بالآخر ، وزادهما الاتصال حباً ، فان كان كل منهما عرف في صاحبه قبل الزواج محامد ومكارم وصفات مثلى فان التقارب الشديد بينهما أظهر لكل منهما حقيقة الآخر ، فإذا كل من الزوجين يرى في صاحبه الصفات المثالية التي تحب .

ومضت بهما السنون هادئة مخصبة ، لا عكر ولا خصام ، بل كانت المحبة والشوق والمعاملة التي بلغت أرقى مراتب الحسن ، ورزقهما الله ثلاث بنين : القاسم والطاهر والطيب ، وأربع بنات : زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة .

وعكفا على تربية أولادهما تربية فاضلة ، وورثوا عـن أبويهم صفاتهما التي ميزتهما عن سائر الناس ، فكانوا أولاداً

بررة كراماً خياراً صالحين ، لم تشهد مكة مثلهم نُبْلاً وصلاحاً .

وبينا الحياة تمضي بالأسرة الكريمة رخية هادئة منعمة جد في أمرها جديد ، فقد هبط في بيت خديجة على محمد الوحي وكانت الرؤى الصالحة ، تتحقق له في عالم الواقع .

وأثرت هذه الرؤى في حياة محمد ، فأخلد إلى التأمل والوحدة ، واستأذن زوجته في الصعود إلى غار بقمّة جبل حراء ، فأذنت له . وأخذ يمضي بعض أيامه في الغار وحيداً بعيداً عن المجتمع الفاسد ، متأملاً في ملكوت السماوات والأرض ، وكلما نفد زاده عاد إلى بيت خديجة ، وأمضى به بعض الأيام ، وتزود لخلوته ببعض الزاد وعاد إلى الغار .

وفي إحدى المرات التي كان بها بالغار يتعبد على ملة ابراهيم عليه الصلاة والسلام جاءه الحق ، جاءه الملك وقال لمحمد : اقرأ ، فأجابه : ما أنا بقارئ !

فأخذه الملك وضمه بعنف ، وعصره حتى بلغ منه الجهد ثم أرسله وقال له : اقرأ ، فأجابه : ما أنا بقارئ .

فأخذه الملك للمرة الثانية وصنع به ما صنع في الأولى ثم قال له : اقرأ ، فأجابه : ما أنا بقارئ .

فأخذه الملك للمرة الثالثة وصنع به ما صنع في المرتين السابقتين ، ثم قال له : « اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الاكرم » .

وغادره الملك ، فانحدر محمد من غار حراء إلى بيت خديجة يرجف مما مر به ، حتى إذا انتهى إلى الدار قال : زملوني ،

زملوني ، فزملوه .

وبعد أن قضّى مزملاً ببعض الأغطية ، مستلقياً على فراشه بعض الوقت ، وخديجة قلقة عليه بجانبه ، شعر بالراحة بعد ذهاب الروح عنه . وقصّ على خديجة قصّته ، فاهتمت به ، ولكنه قال لها : لقد خشيت على نفسي ! فقالت خديجة : لا خوف عليك . والله . ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكَلّ . وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق .

هذه صفات محمد الإنسانية ، فلن يخذله ربها ما دام يعمل لخير عباده .

وكانت خديجة على علم بالرسل والكتب السابقة ، فابن عمها ورقة بن نوفل قد تنصر واطلع على ما في الديانة النصرانية وكان ورقة يتحدث بذلك ، وكانت خديجة على صلة به ، تسمع منه ما لديه من علم ، فأخذت زوجها ومضيا إلى ورقة ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي .

وقالت خديجة : يا بن عم ، اسمع من ابن أخيك !

فقال ورقة : يا ابن أخي ، ماذا ترى ؟

فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما رأى . وبما كان من الملك وكان منه .

فقال ورقة بعد أن سمع منه وتأمله : هذا الناموس الذي نزّل الله على موسى ، يا ليتني فيها جذعاً ، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك .

وسأله محمد : أومُخْرِجِيّ هم ؟

فأجابه ورقة : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عوديَ ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً .

ولم يطل العمر بورقة ، فقد توفي .

وتحدث الزوجان بعضهما إلى بعض ، وأخذ الملك ينزل على محمد ، ولم تكن خديجة تشك في اتصال زوجها الصادق بالسماء ، وأرادت مزيداً من الأمن والطمأنينة ، فطلبت اليه أن يخبرها إذا هبط عليه الملك .

وذات مرة جاءه جبريل ، فأخبر محمد زوجه ، فطلبت إليه أن يقعد على فخذها الأيسر ، وسألته : أتراه ؟ فأجابها : نعم ، وحولته إلى فخذها الأيمن وسألته : أتراه ؟ فأجابها : نعم ، ثم ألقت عليه خمارها وسألته : أتراه ؟ فقال : الآن ، لا أراه !..

فهتفت خديجة من أعماق نفسها : يا ابن العم ، اثبت ، وأبشر ، فإنه ملك وما هو بشيطان !..

وتغير مجرى حياة محمد كما تغير مجرى حياة أسرته ، فلم تعد التجارة تشغل خديجة ، بل جاءهما ما يشغلهما عن الحياة التي يحياها الناس ، وشغلا أنفسهما بما جدّ .

وأشد تغير حدث ببيت محمد ايمان خديجة بزوجها ، آمنت خديجة حق الايمان ، وشهدت ألا إله إلا الله ، وان محمداً رسول الله ، وكانت بشهادتها ، أول من أسلم على وجه الأرض .

إن خديجة ليست المسلمة الأولى وحسب ، بل كانت في

هذه الفترة الإسلام كله ، وليس في الدنيا مسلم على دين محمد غيرها ، ثم أسلم أولادهما البررة الأخيار الصالحين .

وبشّر محمد رسول الله بالدين الجديد الحق ، وذهل الكفار بمكة عندما سمعوا منه ما حدثهم به وأرشدهم اليه ، فاجتمعت كلمة الكفر على محاربته . وتسفيهه . ومقابلته بما يكرهه ويؤذيه .

ووقفت خديجة إلى جانب زوجها بمالها وبشخصيتها وبكل ما لديها من قوة . ولكن كلمة الكفر كان لها السلطان بمكة وبالجزيرة العربية ، بل بالدنيا كلها .

وانقلب الخلاف بين محمد ودينه وبين الكفار ووثنيتهم إلى خصومة عارمة تزداد شدة كل يوم ، واجتمع مشركو مكة على اعتقال بني هاشم وحبسهم في شعب هاشم بأوسط مكة ، وفرض عقوبة صارمة أصرم ما تكون العقوبة ، وهي عزل بني هاشم في شعبهم لا يعاملهم الناس ولا يعاملونهم ، وكتبوا صحيفة بباطلهم علقوها في جوف الكعبة تحوي مقاطعة بني هاشم مقاطعة تامة .

ولم تترك خديجة زوجها محمداً لهذا المصير الجديد ، وكان بوسعها أن تتركه ، فما لها من شرف وقوة ومشاركة في الحياة التجارية والاقتصادية يبعدها عن مشاركة زوجها وبني هاشم مصيرهم ، إلا أنها أبت ، وتركت حريتها ومنزلها وما كانت فيه هي وأولادها من نعمة وارفة الظلال ، ومضت مع زوجها إلى الشعب تقاسمه الحياة التي يحياها راضية مطمئنة ، لا تبالي الجوع والاضطهاد بعد الشبع والري والحرية والحياة الهانئة ، وصبرت صبراً جميلاً وعظيماً .

وبعد مضي ثلاث سنوات تقريباً أفرج عن المحاصرين ، فقد كان الحصار في الليلة الأولى من الشهر الأول للعام السابع من البعثة النبوية ، وخرجوا إلى الحياة بعد ذلك الحصار ، وخرجت خديجة معهم ، ولكن الحصار أثر على حياتها وصحتها ، ونهكت قوتها ، وانحل عودها الصليب ، ولكن روحها ازدادت شباباً وقوة ، فهي تصبر من أجل الله وأجل رسوله ، ويسعدها احتمال المكاره مهما اشتدت في سبيل الحق الذي آمنت به .

وانتقلت خديجة من شعب هاشم إلى دارها محمولة حملاً ، فالمرض كان قد اشتد بها ، ولم تستطع المشي ، ولزمت فراشها ولزمها زوجها لم يفارقها لحظة منذ نقلها وحملها إلى بيتها ، وفي اليوم الثالث ودعت الحياة بين يدي زوجها وأولادها ، إلا أنها أغمضت عينيها وهي سعيدة بايمانها ، وباسلامها ، وبدخول بعض أقطاب مكة في دين زوجها .

ماتت خديجة ، وكان حزن زوجها عليها حزناً بالغ الشدة ، وتركت له الثكل والأولاد وعداوة المشركين .

ومنذ أن دفن محمد خديجة وذكراها لا تفارقه ، ولا يذكر أحد من الناس مثل ما يذكر زوجته المؤمنة المسلمة الصالحة خديجة ، ولم يفتر لسانه الشريف من الثناء عليها بما هي له أهل .

كان يذكرها دائماً ، ويثني عليها ، ويدعو لها ، وبلغ من حبه إياها ، ووفائه لذكراها أنه كان يتهلل لكل ما يذكره بها أو من يذكره بها .

سمع رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم صوت « هالة »

أخت خديجة ، فتبسطت أساريره ، وانفرجت شفتاه الشريفتان عن ابتسامة الرضا والبهجة ، وتهلل كل وجهه ، وقال في فرح نابع من القلب : اللهم هالة .

وإذا زارته صديقة من صديقات خديجة استقبلها في سرور لا حدّ له ، ومن حبّه زوجته كان باراً بكل من يعرفها .

ولما أظهر الله دينه ، ونصر عبده ورسوله محمداً ، وضم بيت رسول الله أزواجه الطيبات الطاهرات ، وكان بينهن من تمتاز بالصبا والوسامة وإشراق الوجه والجمال كان ذكر خديجة لا يفارقه ، ويذكرها بخير صفاتها ، وكل صفاتها خير .

وجاءت إلى بيته زوجته الشابة الجميلة عائشة بنت أكرم الرجال وأحبهم اليه وأسبقهم إلى دينه ونصرته والتضحية بماله وبنفسه وبأهله الصديق الأكبر أبي بكر ، فلم تشغله هـذه الزوجة بكل مزاياها عن ذكر خديجة ذكراً مرفوعاً وجميلاً ومتجدداً ، فأكلت الغيرة الشاعلة قلبها من هذا الذكر الذي لا يذكر محمد أحداً سواها مثله .

إن عائشة هذه في مكارمها ومحامدها ومكانتها من زوجها رسول الله كانت تغار من ذكره خديجة ، ورأت فرحه صلى الله عليه وسلم بزيارة هالة ، وترحابه بمقدمها ، وهتافه من كل قلبه : « اللهم هالة » ! فقذفت قذيفة شديدة وقالت في غضب غاضب : « ما تذكر من عجوز من عجائز قريش ، حمراء الشدقين ، هلكت في الدهر ، وأبدلك الله خيراً منها » .

ويشتد وقع قذيفة عائشة على رسول الله ، لأنها ذكرت زوجته ذكراً سيئاً ، فثار للحق ، وانتصف له ، ورد على

عائشة قذيفتها عنيفة ، والفارق بينهما أن قذيفة عائشة انطلقت من غيرتها العمياء الضالة الخرساء ، وانطلقت قذيفة رسول الله من الحق والعدل والخير .

رد عليها رسول الله بقوله الذي هو أنشودة الحق :

« والله ، ما أبدلني الله خيراً منها ،

« آمنت بي حين كفر الناس

« وصدقتني إذ كذبني الناس ،

« وواستني بمالها إذ حرمني الناس ،

« ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء » .

ورجعت عائشة إلى الصواب ، وأدركت فضل خديجة على النساء وعلى الناس جميعاً ، فما مثلها من أحد في أمة الإسلام صنع صنيعها ، ورسول الله أعرف بالفضل من الفاضلين دون سواه ، فكان حب خديجة في قلبه ولسانه ، ووفاؤه لها الذي لا وفاء مثله يدفعه إلى اللهج عليها بالثناء الطيب الذي لا ينقطع .

إذا ذبح شاة ذكر صديقات خديجة وقال : « ارسلوا إلى أصدقاء خديجة » .

ورحم الله خديجة وأسكنها الجنة ، فقد وافاها الأجل في شهر رمضان سنة عشر من البعثة النبوية وهي في الخامسة والستين .

سَيّدة نِسَاءِ العَالَمِين

سيدة نساء العالمين ، وابنة سيد المرسلين ، وأمها خديجة هي التي كانت في يوم من الأيام « الإسلام » كله ، فهي تعود إلى أكرم أبوين ، وأفضل والدين ، وأعظم بيت في الدنيا منذ كانت حتى يرثها الله بما فيها ومن فيها .

وأشبه أولاد رسول الله به ، قليلة الكلامَ ، وإذا تكلمت كان كلامها عسلاً مصفى ، وعطراً شذياً ، ولا غرابة أن يكون حديثها كذلك ، فقد ولدت في بيت كان القرآن يتدوى في « حجراته » غضاً طرياً ساعة نزوله ، فتسمعه ، وتتأدب بأدبه ، ويلهج لسانها به ، فينالها من كلام الله ما ينبثق منه على الدوام من الخير الذي ليس كمثله في كلام أحد غيره .

وولدت فاطمة فاستقبلها خير أب على الاطلاق ، وخير أم بين الأمهات ، فنشأت في بيت النبوة نشأة أصلح ما تكون النشأة ، وأخذت عنهما صفاتهما الجليلة ، وتدربت على أعمالها الكريمة ، واعتقدت العقيدة التي تفردت دون العقائد في الكمال ، فكانت سيدة نساء العالمين .

ولدت فاطمة سنة بناء الكعبة ، قبل أن يبعث أبوها بأربع سنوات تقريباً ، فلما بعث أبوها كانت تعقل ما يقال ، وتفهم

ما يكون من العمل ، وأسلمت وهي صغيرة ، وقرأت ما نزل من القرآن مع أول المسلمين الذين قرأوه .

وهي ابنته الوحيدة التي عاشت أيام النبوة والرسالة حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى رسول الله ، وأدركته بعد ستة شهور من وفاته صلى الله عليه وسلم ، فكانت أول أهله لحوقاً به .

وكانت سيدتنا فاطمة جميلة في خلْقها وخلقها ، بليغة في منطقها ، ذات بيان رائع ، وكانت في أعلى قمة من الإنسانية ، تعيش في صميمها ، وكانت تامة في عقلها ، كاملة في صفاتها ، وكيف لا تكون كذلك وهي أشبه أولاد رسول الله به .

وكان خير المسلمين من الرجال يصبو إلى الاقتران بهـا ليكون له شرف القرب من رسول الله ، فتقدم أبو بكر اليه يخطبها لنفسه ، فقال له : « يا أبا بكر ، انتظر بها القضاء » !

وأخبر أبو بكر عمر بخطبته ، فأسرع عمر إلى رسول الله يتمنى القرب منه صلى الله عليه وسلم ، وخطبهـا لنفسه ، فأجابه بما أجاب أبا بكر ، وقال له : « يا عمر ، انتظر بها القضاء » .

ثم زوجها من ابن عمه : علي بن أبي طالب عن موعدة وعدها إياه ، وهذا الوعد هو الذي دعـاه إلى الاعتذار لصاحبيه . ومضى رسول الله إلى ابنته فاطمة — وكانت قد علمت بخبر تزويج أبيها إياها من علي بن أبي طالب — فقال لها يطمئنها ويطيب خاطرها : « ما لك تبكين يا فاطمة ، فوالله ، لقد أنكحتك أكثرهم علماً ، وأفضلهم حلماً ، وأولهم سلماً » .

ولم يكن لدى علي ما يقدمه مهراً ، لم يكن لديه نقود يدفع منها صداق بنت رسول الله ، فأمره ببيع سيفه أو درعه، فباع ما أراد بيعه بأربعمئة وثمانين درهماً ، وقيل : بخمسمئة درهم .

وهو مهر سهل يسير ، لا يثقل كاهل الزوج ، فما كان المهر قيمة المرأة ولن يكون ، ولكنه هدية أو رمز على الرباط الشريف ، يقدمه المسلم سعيداً مطمئناً .

وكان الإسلام دين السماحة ، وما يزال كذلك ، وإن كنا قد بعدنا عنه في المهور وفي الجهاز ، وأثقلنا الكواهل بالنفقات الباهظة ، والعادات والتقاليد المرهقة الجائرة .

وماذا كان جهاز سيدة نساء العالمين : فاطمة بنت سيد المرسلين ؟..

لم يكن إلا يسيراً يدل على اليسر والقناعة والسماحة ، لأن القصد من الصداق بناء الأسرة وإيثاقها بالسهولة والخير ، لا الارهاق والإثقال بما كثر من النفقات ، وما سمح من العادات والتقاليد .

كان جهاز فاطمة سيدة نساء العالمين جهازاً أشبه بجهاز مسافر لا يطيق غير التخفف ، وليست حياة الإنسان إلا سفراً ، مهما طالت أيامه وابتعدت مراحله فهو قصير .

كل جهاز فاطمة رضي الله عنها : سرير شروط ، ومخدة من جلد حشوها ليف ، ووعاء من جلد للماء أو اللبن أو ما أشبه يقال له : السقاء ، ومنخل ، ومنشفة ، وقدح ورحاءان وجرتان ، وإناء يغسل فيه يقال له : تود ، وهو ما يعرف

لدينا بالطشت .

ولم يكن غير هذا الجهاز جهاز سيدة نساء العالمين تنتقل به إلى أكثر الصحابة الأجلاء علماً ، وأفضلهم حلماً ، وأولهم سلماً كما وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأين هذا الجهاز السهل اليسير من جهاز هذه الأيام الذي ينوء بحمل نفقاته الزوج وأهل الزوجة .

إن المبالغة في المهر ، والاسراف في مظاهر حفلات القران والزفاف وما يقدم فيهما من الحلوى والأطعمة والأشربة هما سبب الانصراف عن الزواج ، وشيوع فساد المجتمعات .

ولو كان المهر سهلاً سهولة الإسلام ، والعادات والتقاليد سمحة سماحة دين الله لعمرت البيوت بالخير والصلاح ، ونعم الأزواج بحياة طيبة هانئة هادئة ، ولكن البعد عن الأسوة الصالحة ، واتخاذ العادات والتقاليد غير الصالحة أديا إلى ما ينكره الإسلام ، فكان ما نرى من انهيار الأخلاق والقيم .

وليس لنا من منقذ مما انتهينا اليه من الذل والهوان والخراب إلا أن نعود من جديد إلى الإسلام نستهديه ما نعمر به النفوس ، والزواج عمران البيوت والنفوس معاً ، ولنا من زواج فاطمة أسوة ورشاد إذا أردنا الخير كله .

ولنر ما كان من رسول الله في زواج أحب الناس اليه وأعزهم عليه فاطمة ، لنتعود عاداته ، ونتبع سنته ، ونتخذ ما اتخذ ، فما يتخذ رسول الله إلا ما فيه الهدى كل الهدى ، والخير كل الخير .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنس : « انطلق ،

وادع لي أبا بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير ، وبعدتهن من الأنصار » .

فانطلق أنَس لما أمره به رسول الله ، وأبلغهم دعوته ، ولبوها سعداء مسرورين ، ولما أخذوا مجالسهم ، قال صلى الله عليه وسلم :

« الحمد لله المحمود بنعمته ، المعبود بقدرته ، المطاع لسلطانه ، المهروب اليه من عذابه ، النافذ أمره في أرضه وسمائه ، الذي خلق الخلق بقدرته ، وميزهم بأحكامه ، وأعزهم بدينه ، وأكرمهم بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، ان الله عز وجل جعل المصاهرة نسباً لاحقاً ، وأمراً مفترضاً ، وحكماً عادلاً ، وخيراً جامعاً ، أوشج به الأرحام ، وألزمها الأنام ، فقال الله عز وجل : « وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً » وأمر الله يجري إلى قضائه ، وقضاؤه يجري إلى قدره . ولكل أجل كتاب ، يمحو ما يشاء ويثبت ، وعنده أم الكتاب ، ثم إن الله تعالى أمرني أن أزوج فاطمة من علي ، وأشهدكم أني زوجت فاطمة من علي على أربعمئة مثقال فضة إني رضي بذلك على السنة القائمة والفريضة الواجبة ، فجمع الله شملهما ، وبارك لهما ، وأطاب نسلهما ، وجعل نسلهما مفاتيح الرحمة ، ومعادن الحكمة ، وأمن الأمة ، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم » .

وبقية قصة هذا الزواج يرويه خادم رسول الله وصاحبه أنَس بن مالك ، ويقول :

« كان علي عليه السلام غائباً في حاجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعثه فيها ، ثم أمر لنا بطبق فيه تمر ، فوضع

بين أيدينا ، فقال : « انتهبوا » . فبينما نحن كذلك إذ أقبل علي ، فتبسم اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « يا علي ، إن الله أمرني أن أزوجك فاطمة ، وإني زوجتكها على أربعمئة مثقال فضة » ، فقال علي : رضيت يا رسول الله . ثم ان علياً خر ساجداً شكراً لله ، فلما رفع رأسه قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « بارك الله لكما ، وعليكما ، وأسعد جدكما ، وأخرج منكما الكثير الطيب » .

قال أنس : والله ، لقد أخرج منهما الكثير الطيب .

وتزوج علي بن أبي طالب فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في رجب ، بعد مقدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة بخمسة أشهر ، وبني بها مرجعه من بدر . وفاطمة يوم بنى بها علي بنت ثماني عشرة سنة [1] .

وبعد تمام عقد الزواج قال رسول الله : « يا علي ، انه لا بد للعروسين من وليمة » . فقال سعد بن عبادة : عندي كبش ، وجمع له نفر من الأنصار آصعاً من ذرة .

هذه وليمة العرس ، ليس فيها أي اسراف كما هو في أيامنا وفي عصور تأخر المسلمين ، خروف واحد وآصع من ذرة ، وهو من رفد الأحباء والأصدقاء ، يجتمعون على الوليمة اجتماع خير ، حق خير ، ليس فيه ما يكرهه الإسلام أو يسخط منه . بل كل ما فيه خير وبركة . على نقيض عاداتنا في الولائم ، إسراف لا ضرورة له ، وسخط يجب التنزه عنه ، وأعمال لا تجري على سنة محمد صلى الله عليه وسلم .

---

١ طبقات ابن سعد .

وينتهي بالوليمة السهلة حفل الزفاف ليمضي الزوج إلى زوجته ، في بيتهما ، فيمضي اليهما رسول الله ويقف على باب دار علي التي انتقلت اليها زوجته الشريفة السيدة ، ويسلم ، ويستأذن ، فيؤذن لرسول الله ، ويدخل ، فإذا أمه أم أيمن كانت قد جاءت مع العروس ، فأم أيمن من أهلها ، تستقبل رسول الله يقول لها : « أثَمّ أخي ؟ » فتدهش أم أيمن وتسأله : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، من أخوك ؟ فيقول لها : « علي بن أبي طالب » ، فتزداد دهشتها وتسأله : كيف يكون أخاك وقد زوجته ابنتك ، فيجيبها : « هو ذاك ، يا أم أيمن » .

ودعا رسول الله بإناء فيه ماء ، فغسل فيه يديه الكريمتين ، ثم دعا علياً فجلس بين يديه ، فنضح على صدره من ذلك الماء وبين كتفيه ، ثم دعا فاطمة ، فجاءت بغير خمار تتعثر في ثوبها ، فنضح عليها من ذلك الماء ، وقال لها : « والله ، ما ألوت أن زوجتك خير أهلي » .

وكان رسول الله باراً بابنته فاطمة ، وبعلي ، دائم الزيارة لهما ، لا ينقطع عنهما . فإذا دخل رسول الله المدينة من سفر مضى أول ما يدخل إلى بيت فاطمة ، ويطيل مكثه لديها ، ثم يمضي إلى منزله .

وكان يزورها كل يوم ، فإذا انتهى من صلاة الفجر في المسجد أقبل على دار فاطمة وأخذ بعضارتي الباب وقال : « السلام عليكم أهل البيت » ، ويقول : « الصلاة » يكررها ثلاثاً ، ثم يتلو قول الله تعالى : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » .

وقالت أم المؤمنين ، أم سلمة رضي الله عنها : في بيتي نزلت : «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت» الآية .

وقالت : أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى فاطمة وعلي والحسن والحسين فقال : «هؤلاء أهل بيتي» .

وتعب علي وفاطمة من العمل المضني . وتشاوروا في أمرهما ، وقال علي لزوجته : لقد سنوت [1] حتى قد اشتكيت صدري ، وقد جاء الله أباك بسبي ، فاذهبي ، فاستخدميه !..

وقالت فاطمة : وأنا والله قد طمنت حتى مجلت [2] يداي !

فمضت فاطمة إلى أبيها الرؤوف الرحيم ، فاستقبلها أكرم استقبال كعادته معها ، وسألها : «ما جاء بك يا بنية ؟» ومنعها الحياء أن تفصح له عن سبب مجيئها اليه ، وقالت : جئت لأسلم عليك .

وعادت السيدة الشريفة العظيمة أدراجها إلى منزلها المتواضع فاستقبلها علي وسألها : ما فعلت ؟ فأجابته : استحييت أن أسأله .

وتشاور الاثنان ما يصنعان ، وأخيراً شجع كل منهما الآخر واتفقا أن يمضيا إلى رسول الله ، ففي اتفاقهما قد يجدان في أنفسهما الشجاعة فيفصحا عن رغبتهما . ومضيا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتشجع علي وقال : والله ، يا رسول الله ، لقد سنوت حتى اشتكيت صدري .

---

١ سنوت الدلو : جررتها من البئر .

٢ مجلت اليد : كان بها بين الجلد وما تحته ماء من كثرة العمل .

وتشجعت فاطمة وقالت : قد طمنت حتى مجلت يداي ، وقد أتى الله بسبي وسعة ، فأخدمنا !..

فقال لهما : « والله ، لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تطوي بطونهم ، لا أجد ما أنفق عليهم ، ولكني أبيعهم، وأنفق عليهم من أثمانهم » .

فغادر أحب إنسانين إلى رسول الله إلى دارهما الصغيرة المتواضعة لم يتحقق ما رجوا ، ولم يستطع رسول الله صبراً على ردهما دون تحقيق ما طلبا ، فأسرع إلى دارهما ، فاختبآ منه في قطيفة . إذا غطيا بها أقدامهما ظهرت رؤوسهما وإذا غطيا رؤوسهما ظهرت أقدامهما ، فقال لهما : « مكانكما ألا أخبركما بخير مما سألتماني ؟» فقالا : بلى . فقال : « كلمات علمنيهن جبريل ، تسبحان في دبُر كل صلاة عشراً ، وتحمدان عشراً ، وتكبران عشراً . وإذا أويتما إلى فراشكما فسبّحا ثلاثاً وثلاثين ، واحمدا ثلاثاً وثلاثين ، وكبّرا أربعاً وثلاثين » .

ففرحا أعظم الفرح بما علمهما ، فهو حقاً خير مما سألا .

يقول الإمام علي كرم الله وجهه : فوالله ، ما تركتها منذ علمنيهن رسول الله ، فقال له ابن الكواء : ولا ليلة صِفّين ؟! فقال علي : قاتلكم الله أهل العراق ، ولا ليلة صفين !..

وزار رسول الله ابنته الحبيبة فرآها تطحن بالرحى وعليها كساء من وبر الإبل ، فبكى ، وقال : « تجرعي يا فاطمة مرارة الدنيا لنعيم الآخرة » .

وعادها ذات مرة وهي طريحة فراشها من مرض ، وقال لها : « كيف تجدينك يا بنية ؟» فقالت : إني وَجِعة ، وأردفت : وإنه ليزيدني أني ما لي طعام آكله ، فبكى رسول الله وقال لها : « يا بنية ، أما ترضين أنكِ سيدة نساء العالمين » .

ابنة خير الخلق لا تجد طعاماً وهي في أشد المرض فضلاً عن الدواء ، وتشكو لأبيها ما تجد من الجوع والمرض ، فلا يملك لها غير دمعه ، وغير دعائه ونصحه ، ولو أراد لهما الطعام المترف والدواء الناجع وأعظم منهما من متاع الدنيا وجاهها لكان ذلك سهلاً ميسوراً ، ولكنه يريد نعيم الآخرة .

وهذا الموقف برهان أجل برهان على صدق رسالته ، لأنه لو كان طامعاً في سيادة ومجد من سيادة الدنيا ومجدها لما حرم فلذة كبده من ضرورات الحياة ، ولكنه رسول حق . والآخرة خير من الدنيا ، والصبر على بلواء الحياة والفاقة المدقعة كسب للآخرة .

وإن إحدانا تتقلب في نعيم الدنيا ، وتغرق فيه ، وتلتهم أطيب ما فيها من طعام وألذه وأهنأه ، وترتدي أفخر ما يكون من الثياب ، وتسرف في كل ذلك إسرافاً ، ومع هذا لا تعرف الشكر المجتذب من الضمير ، والحمد المنطلق من القلب ، كأنما لا يوم غير يومها فهي تتزود فيه وتتخم .

ولو قنعنا بالأطايب دون اسراف لكان الغناء كل الغناء ، ولكن التخمة أثقلت المسلمين ورمتهم إلى الأرض ، لا يستطيعون حراكاً للعمل الصالح من ثقل طعامهم الدسم وتعدد ألوانه الفاخرة ، فكان ما انتهوا اليه من الذل والهوان ، ومن تسلط أحقر الناس عليهم وتحكمهم فيهم .

قالت أم المؤمنين عائشة : «أول بلاء حدث في هذه الأمة بعد نبيها الشبع ، فإن القوم لما شبعت بطونهم سمنت أبدانهم، فضعفت قلوبهم ، وجمحت شهواتهم» .

ولم يكن الشبع أيام أم المؤمنين عائشة كشبع أيامنا ، ولذلك عظم البلاء ، وانقلب الإنسان حيواناً أكولاً ، لا همّ له غير جوفه ، فسمن الجسم . وهزل الروح .

روى الصحابي الجليل ابن بجير رضي الله عنه قال : أصاب النبي صلى الله عليه وسلم جوع يوماً ، فعمد إلى حجر فوضعه على بطنه ، ثم قال : «الا رب نفس طاعمة ناعمة في الدنيا جائعة عارية يوم القيامة . ألا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين ، ألا رب مهين لنفسه وهو لها مكرم» .

وعن عائشة رضي الله عنها ، قالت : رآني رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أكلت في اليوم مرتين ، فقال : «يا عائشة ، أما تحبين أن يكون لك شغل إلا جوفك ، الأكل في اليوم مرتين من الإسراف ، والله لا يحب المسرفين» .

ومرّ رسول الله ذات مرة بابنته فاطمة ، فناولته كسرة من خبز شعير ، فقال لها : «هذا أول طعام أكله أبوك منذ ثلاثة أيام» .

ولم يكن في بيت فاطمة غير هذه الكسرة التي لا تساوي لقمة أحدنا ، آثرت به أباها سيد الخلق الذي لم يذق طعاماً منذ ثلاثة .

بهذا الصبر ، وبهذا الزهد ، بل بهذا الترفع على الدنيا سيطروا على الدنيا ، وأجاعوا أجسادهم من متع الدنيا ، فأشبعوا

أرواحهم بالايمان بالله ، والأمل في رضاه ونعيم الآخرة .

رضيت فاطمة بما رضي به أبوها من الدنيا ، فكانت مثله في الصبر على الجوع ، وفي الصفات الكريمة كلها حتّى وصفها بقوله : « ذرية بعضها من بعض » .

وعاشت مع الشظف وجفاف الحياة سعيدة بأبيها الكريم ، وزوجها الحميم ، حتّى إذا مرض رسول الله جزعتٍ أيما جزع ، وعز عليها مرضه . وخافت أن يتركها ويفارقها بالموت ، فلزمته تدعو الله لأبيها ، وكان — وهو في مرض موته — فرحاً بابنته وولديها الحسن والحسين ، حتّى إذا اشتد برسول الله وجعه وقال : « واكرباه » ملك الجزع على فاطمة كل نفسها فصاحت باكية : وا كربي لكربك يا أبتي .

فيسرع الرسول إلى طمأنة ابنته ويقول : لا كرب على أبيك بعد اليوم .

ومع هذا يشتد جزع فاطمة على أبيها ، ويرى رسول الله أن ما هي فيه من آلام تطحن ، فيدنيها إلى فمه ويسر في أذنها فتبكي بكاء ما يحبس دمعها حابس ، فيأخذ رسول الله برأس ابنته ويدني سمعها في فمه فتتبدل حالها من الجزع والحزن والدمع إلى الرضا والحسرة ، وتضحك .

وتُسْأل فاطمة عن سر رسول الله الذي أبكاها ، وعن سره الذي أضحكها ، فلا تبوح به .

وينتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، وتسأل أم المؤمنين عائشة سيدة نساء العالمين فاطمة عن السر الذي أبكى والسر الذي أضحك ، فلا تجد حرجاً وقد مات

أبوها من البوح به ، وقالت : أخبرني أنه ميت فبكيت ، ثم في الثانية أخبرني أني أول أهله لحوقاً به فضحكت .

وصدقت نبوءة النبي الصادق المصدوق ، وكانت فاطمة سعيدة كل السعادة بهذه البشرى التي سرتها من أبيها ، فماتت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ببضعة شهور أبعدها في التقدير من قالوا : ستة شهور .

وأياً ما كان الأمر ، فإنها كانت أول أهله لحوقاً به حقاً ، فقد وافاها أجلها ليلة الثلاثاء ، لثلاث خلون من شهر رمضان المبارك سنة إحدى عشرة من الهجرة ، وكان عمرها تسعاً وعشرين سنة .

وتولى غسلها أسماء بنت عميس والإمام علي كرم الله وجهه ، وصلى عليها علي ، وقيل العباس ، وقيل : خليفة رسول الله أبو بكر ، ونزل في قبرها علي والعباس والفضل بن العباس ، ودفنت بالبقيع .

ماتت سيدة نساء العالمين فاطمة صغيرة ، ولكنها تركت ميراثاً متجدداً ، إنه ابناها الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة .

وقد استجاب الله لدعاء رسوله الكريم الذي دعا لفاطمة وعلي حين قرأ صلى الله عليه وسلم خطبة الزواج وقام بالعقد فقال : « جمع الله شملهما ، وبارك لهما ، وأطاب نسلهما ، وجعل نسلهما مفاتيح الرحمة ، ومعادن الحكمة ، وأمن الأمة » .

الصِّدّيقة بنت الصِّدّيق

أهدي هذا البحث إلى ذكرى الكاتب الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد الذي أفضل علي باهداء كتابه العظيم « الصديقة بنت الصديق » بهذه الكلمة الجميلة :

« سيرة السيدة الكبرى في الإسلام »

« أم المؤمنين »

« أهديها إلى مثل المرأة المسلمة المتعلمة حرم الصديق الكريم الاستاذ عبد الغفور العطار » .

أهدي إلى ذكراه هذا البحث وفاء وقدراً لفضله وعبقريته .

م . ح .

الاهداء بخط العقاد

•

سيرة السيدة الكبرى في الاسلام

" ام المؤمنين "

اهديها الى مثل المرأة المسلمة المتعلمة

حرم الصديق الكريم الاستاذ عبد الغفور عطار

العاشر من رمضان ١٣٧٥

مع التحية والاكرام

المخلص

عباس محمود العقاد

- ١ -

الصديقة بنت الصديق

أفضل أمهات المؤمنين ، أزواج الرسول الامين محمد صلى الله عليه وسلم .

عائشة بنت أبي بكر ، رضي الله عنهما ، وجزاهما عن الإسلام والمسلمين كل خير .

زوجها سيد الأزواج ، وأفضل الخلق ، بل أفضل خير الخلق وهم رسل الله .

وأبوها أفضل المسلمين طراً ، وأكبر صحابة الرسول جاهاً وقدراً ومكانة وخلقاً .

وإن أم المؤمنين عائشة نموذج في عالم النساء ، نموذج المرأة المؤمنة المسلمة الصالحة ، ونموذج المرأة الإنسانة ، ونموذج العالمة الفاهمة ، إنها نموذج في أجمل خلائق المرأة وأنبل صفاتها .

وانتهت في المجد إلى أعلى القمم ، زوجها خير خلق الله ، وأبوها خير المسلمين طراً ، وأمها أم رومان من خير المسلمات ، أسلمت بمكة حرسها الله قديماً ، ونالت شرف البيعة وشرف

الهجرة ، وشرف كونها «حماة» رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وتاريخ أبي بكر رضي الله عنه معروف فلا حاجة إلى تكرار القول المشهور ، وأما أم رومان فامرأة صالحة ، وحسبها فخراً في الدنيا والآخرة قول رسول الله فيها عندما وضعت في قبرها : «من سره أن ينظر إلى امرأة من الحور العين فلينظر إلى أم رومان» .

وهذه بشرى من رسول الله بأن أم رومان من أهل الجنة ، وكذلك أبو بكر سيد كهول أهل الجنة .

وورثت عائشة من هذين الأبوين الشريفين العظيمين صفاتهما الكريمة وخلائقهما العظيمة ، ومَنّ الله على أم المؤمنين بزواج رسول الله فاكتسبت من أخلاق النبوة ما جعلها وارثة صفات الرسول الأمين وعلمه النافع وخلقه العظيم .

وكان أبو بكر وأم رومان أحب الناس إلى رسول الله كما كانت ابنتهما الصديقة أحب النساء اليه صلى الله عليه وسلم .

وروت عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «أريتك في المنام مرتين ، أتيت بك في سَرَقَة[1] حرير فأكشفها فإذا هي أنت ، فيقال : هذه امرأتك ، فأقول : إن كان هذا من عند الله يمضه» .

من حديث آخر لعائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : : «رأيتك يحملك الملك في سرقة من حرير» .

---

١ السرقة : القطعة من الحرير الجيد .

وتفخر عائشة على ضرائرها رضي الله عنهن جميعاً قولها لهن : صُوِّرْتُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن أصور في رحم أمي .

وحق لعائشة أن تفخر ، فما في الأرض شرف مثل شرفها بين النساء جميعاً من غير بنات الرسول الكريم !

وولدت عائشة في السنة الثامنة قبل الهجرة أو نحوها ، وكان رسول الله يختلف إلى دار صديقه أبي بكر فيرى عائشة ؛ ويوصي بها خيراً ، ولا يطيق أن يراها حزينة ، فذات مرة رآها تبكي ، فسألها رسول الله فأخبرته أن أمها ضربتها ، فبكي لبكائها ودخل على أم رومان وقال لها : « ألم أوصك بعائشة أن تحفظيني فيها ؟ » فقالت : يا رسول الله ، بلغت الصديق عني ، وأغضبته علينا ، فقال لها رسول الله : « وإن فعلت ! » فقالت : لا جرم لا أسوءنها أبداً .

وهاجرت عائشة مع أمها وأختها اسماء وأخيها عبد الرحمن إلى المدينة حرسها الله بعد هجرة الرسول وصاحبه ، ولكن خطبة الرسول إياها كانت في مكة قبل الهجرة ، وكانت مخطوبة من قبل لجبير بن مطعم بن عدي ، ولم يكن رسول الله يعلم عن هذه الخطبة ، فقد سبق من أبي بكر عدة وعدها جبيراً .

فلما خطبها رسول الله فرح أبو بكر بهذه الخطبة الشريفة استمهله حتى يسلها من الخاطب ، ويخرج عن موعده خروج الإنسان الشريف ، ويشاء الله أن يعتذر والد جبير عن خطبة عائشة لابنهما جبير ، فهما وابنهما على دين قريش ، وعائشة مسلمة على دين محمد صلى الله عليه وسلم .

وتزوج رسول الله عائشة في السنة العاشرة للنبوة ، ودخل

بها بعد ذلك .

ويخيل لبعض الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل بعائشة وهي طفلة ، وما ذلك بصحيح وإن كانت تلعب مع أترابها ، فبعض البنات ينبت عظمهن نباتاً حسناً ، وترى أجسامهن أكبر من سنهن ، فإذا كانت في الثانية عشرة - كعائشة — بدا جسمها وكأنها أكبر من سنها ببضع سنوات .

وليس من المعقول أن يدخل رسول الله بطفلة ، ورسول الله سيد الرحماء وأعظم الرجال فهماً لما يجب ، وأبعد ما يكون عن هيجان النفس .

وبدخول عائشة بيت رسول الله دخل فيه عنصر الشباب والمرح ، واتحد بيت الصاحبين ، ودخلت البهجة قلب رسول الله الذي حبا زوجه الكريمة بكل حنانه وعطفه .

وبلغ من أنس رسول الله بعائشة أنه كان يدللها ويلقبهـا بالحميراء والشقيراء ، وكان يحبها حباً عظيماً لم يعرف لغيرها من أزواجه الطيبات الطاهرات .

وكانت آثر نساء النبي صلى الله عليه وسلم ، فهي ابنة صاحبه أبي بكر الذي فداه بنفسه وماله وأهله ، وصدقه في كل أمر من أمور السماء والأرض حتى لقب بالصديق دون غيره من الصحابة الكرام .

وعائشة كانت أجمل نساء رسول الله وأكثرهن شـباباً وحيوية ، وأعظمهن علماً وفقهاً ، وأفصحهن منطقاً ، وأبلغهن قولاً ، وأعذبهن فاهاً ، وأكرمهن على رسول الله لمزاياهـا ومزايا أبيها .

- ٢ -

عائشة وأزواج الرسول

لم يكن حب رسول الله لعائشة سراً خفياً ، بل كان أمره معروفاً ومشهوراً بين المسلمين . فكانوا يترقبون ليلة عائشة ويهدون إلى رسول الله هداياهم .

ولم ترض أزواج الرسول بذلك . وساءهن ألا يهدي المسلمون هداياهم إلا إذا كان في بيت عائشة ، ويؤخرونها إذا كان في بيت غيرها ، حتى إذا كانت دورتها بعثوها .

واتفق أزواج الرسول على محادثته في ذلك ، وانتدبن زوجه أم سلمة لتتحدث إلى رسول الله أصالة عن نفسها ونيابة عنهن، وقلن لأم سلمة : إن الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة ، وإنا نريد الخير كما تريد عائشة ، فكلمي رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأمر الناس أن يهدوا اليه حيثما كان أو حيثما دار.

وذهبت أم سلمة إلى رسول الله وأبلغته عن نفسها وعن ضرائرها ، فأعرض عنها ، ولم يجبها ، فعادت اليهن وأخبرتهن بما كان من رسول الله ، فقوين عزيمتها ، وطلبن اليها أن تعود إلى رسول الله ، وألا تفارقه حتى يتحدث اليها .

وعادت أم سلمة إلى رسول الله وكررت قولها السابق ، ولكن رسول الله أعرض عنها كما أعرض من قبل ، ولاذ بالصمت ، وأخذت أم سلمة تعيد عليه القول ، وتحاصره لكي يتحدث اليها وهو منصرف عنها ، برم بحديثها . ولم تتركه أم سلمة ، بل اضطرته إلى القول فقال صلى الله عليه وسلم : «يا أم سلمة ، لا تؤذيني في عائشة ، فإنه والله ما نزل علي الوحي في لحاف امرأة منكن غيرها» .

وأدركت أم سلمة – رضي الله عنها وعن سائر أمهـــات المؤمنين – أنها تجاوزت حدها وهي الصالحة العاقلة ، فأعلنت لرسول الله ندمها وقالت : أتوب إلى الله من ذلك يا رسول الله .

وعادت إلى زميلاتها وهي كاسفة نادمة لما بدر منها في حق رسول الله وحق عائشة ، وأخبرتهن ، ولكنهن لم يقنعـــن بسفارتها ، فبعثن إلى فاطمة رضي الله عنها ، فهي أحب الخلق اليه ، وأشبه الناس به ، ورسول الله لا يرد لها طلبـــاً ، وهي لا تطلب إلا الحق ، وحدثنها . وطلبن اليها أن تمضي إلى أبيها ، ويسألنه العدل في ابنة أبي قحافة .

فمضت فاطمة إلى أبيها وهو في بيت عائشة ، وأبلغته ما كلفنها به ، فقال لها : «أي بنية ، ألست تحبين ما أحب ؟» قالت : بلى ، فقال لها : «أحبي هذه» مشيراً إلى عائشة .

فعادت إلى أزواج النبي وأخبرتهن بما كان ، فلم ينثن عزمهن ، وارتأين انتداب «زينب بنت جحش» فهي دونهن تسامي عائشة مكانة ، ومضت زينب إلى رسول الله وهي منفعلة ثائرة ، واستقبلها الرسول الكريم استقبالاً حسناً كما استقبل أم سلمة وفاطمة .

وأخذت أمّ المؤمنين زينب تقع في عائشة وتشتد في القول وعائشة صامتة تنظر إلى رسول الله ، كأنها تستأذنه في الرد على ضرّتها ، وفهمت أن رسول الله لا يمنعها من أن تنتصف لنفسها فثارت عائشة لكرامتها ، وأخذت ترد على زينب حتى أفحمتها إفحاماً .

بدأت زينب حديثها مع رسول الله بقولها : يا رسول الله ، إن أزواجك أرسلني اليك يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة !..

ثم وقعت في عائشة بكلام عنيف ، فلما ردت عليها عائشة ردها البليغ سكتت ، لأن منطقها الغلاب قهر انفعال زينب وتهجمها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إنها ابنة أبي بكر» .

ولا يفهمنّ أحد أن رسول الله لم يعدل بين نسائه بما شهد من نقمتهن على عائشة وكثرة السفيرات اليه ، فرسول الله لم يعط عائشة مما يملك أكثر من غيرها ، بل كان عادلاً بينهن ، ولكنها غيرة أمهات المؤمنين هي التي أرتهن ما ليس موجوداً ، وضخمت في أعينهن ما كان صغيراً ، فحسبن أن في الأمر ما ليس عدلاً ، مع أن رسول الله لم يمض إلى عائشة في غير دورها ، ولم يأخذ حق إحداهن ويعطيه إياها .

وأما هدايا الناس فلا يد لرسول الله فيها ، فهو لم يأمرهم بأن يتحروا بها يوم عائشة ، وليس من اللائق أن يحقق مطلب نسائه بأمر الناس أن يهدوا اليه حيثما يكون عندهن ، فرسول الله أكرم من أن يسأل أحداً سؤالاً كهذا .

وإذا كان قلب رسول الله مع عائشة أكثر فلمزايا حرمتها وقد فخرت عائشة بهذه المزايا فقالت في حديث كريم لها :

« فضّلت على نساء النبي صلى الله عليه وسلم بعشر : لم ينكح بكراً قط غيري . ولم ينكح امرأة أبواها مهـاجران غيري . وأنزل الله عز وجل براءتي من السماء . وجـاءه جبريل بصورتي من السماء في حريرة وقال : تزوجها فإنهـا امرأتك . وكنت أغتسل أنا وهو من إناء واحد ، ولم يكن يصنع ذلك بأحد من نسائه غيري . وكان يصلي وأنا معترضة بين يديه . ولم يكن يفعل ذلك بأحد من نسائه غيري . وكان ينزل عليه الوحي وهو معي . ولم يكن ينزل عليه وهو مع أحد من نسائه غيري . وقبض الله نفسه وهو بين سـحري ونحري . ومات في الليلة التي كان يدور عليّ فيها . ودفن في بيتي » .

وليست هذه مزايا سيدتنا عائشة ، فهناك مزايا أخرى ، فأبوها أصدق أصدقاء رسول الله وصاحبه في الغار ، ورفيقه في الهجرة ، ونائبه في الصلاة ، وخليفته على المسلمين . ولكن هذه المزية ليست مقصورة عليها . فلها فيها شركاء وهم إخوتها فلم تحسبها من مفاخرها الخاصة على ضرائرها . ولو ذكرته لكان لها حق ، فليس في آبائهن أب مثل أبيها .

وحب رسول الله لعائشة حب ثابت ، ولكنه لم يصرفه عن لومها إذا استحقته ، وكان ينتصف لضرائرها إذا ظلمن من قبلها ، فقد حدثت بين عائشة وصفية بنت حيي رضي الله عنهما مشادة وسباب ، وكانت عائشة أفصح لساناً وأقوى منطقاً ولم تكن صفية مثلها في الفصاحة والبيان والحجة ، وفخرت بأبيها العظيم الصديق ، وعجزت صفية عن الرد ، فأبو بكر أهل الاحترام من كل مسلم ، وصفية تعلم مكانته من رسول

الله ، فهي لا تستطيع أن ترد على مفخرتها بأبيها ، فانتصر لها رسول الله بحق وقال لصفية : «ألا قلت لها : أبي هارون ، وعمي موسى ، وزوجي محمد» .

وصفية رضي الله عنها يهودية الأصل ، ولقنها رسول الله الحجة الصادقة . وهارون عليه السلام أفضل من أبي بكر ، لأنه رسول الله ، وهذا حق لا ينتقص من قدر أبي بكر إذا فخرت به صفية على عائشة .

فرسول الله تولى الرد على عائشة عندما ثار بينها وبين صفية جدل عنيف ، ولم يمنعه حبّه لعائشة أن يرد عليها وينتصف لضرتها .

بل كان رسول الله يقسو على عائشة ، فقد رآها ذات مرة تأكل مرتين ، وكانت العادة أن يأكلوا مرة واحدة ، وعائشة هي التي تروي ذلك فتقول : «رآني رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أكلت في اليوم مرتين فقال : يا عائشة ، أما تحبين أن يكون لك شغل إلا جوفك ، الأكل في اليوم مرتين من الإسراف ، والله لا يحب المسرفين» .

وذكرت عائشة صفية بين يدي رسول الله ذكراً غير محمود ، فغضب عليها غضباً شديداً ، ولم يكن أحد حاضرهما ، ولم يرو الرسول صلى الله عليه وسلم الحادث ، بل روتها عائشة نفسها ، وما جبهها به الرسول لوم وتوبيخ شديدان لها ، ولكنها عائشة الصديقة الصادقة الأمينة تروي الحق وإن كان ضدها .

قالت عائشة : «قلت للنبي صلى الله عليه وسلم : حسبك

من صفية كذا وكذا — تعني قصيرة — فقال : قد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لغيرته » .

وهذه كلمة غاية في القسوة ، ترويها عائشة ، فهي اغتابت صفية ، وذكرتها بما يسوء ، فجبهها الرسول جبهاً شديداً ، وليس أشد من تلك الكلمة المحمدية في الزجر والتأديب .

وكانت سيدتنا الصديقة الصادقة « تناكف » رسول الله وتخاصمه ، فيتجاوز عنها إذا كان الأمر خاصاً به ، وكانت من السذاجة والطيبة والحدة ما يطلق لسانها بما لا يحسن في حق الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومع هذا كان يعفو عنها .

وروت عائشة الصديقـــة الصادقة الأمينة بعض حوادث « المناكفة » التي لا يخلو منها بيت الزوجية ، فقد روت أن كلاماً حدث بينها وبين رسول الله ، فقال لها : « من ترضين بيني وبينك ؟ أترضين بعمر » ؟ فقالت : لا ، لا أرضى عمر قط ، عمر غليظ ! قال : « أترضين بأبيك بيني وبينك » ؟ قالت : نعم .

وبعث رسول الله إلى أبي بكر ، فأسرع با لحضور ، وأخذ رسول الله يروي له ما حدث ، ولم يعجب عائشة ما ذكر رسول الله من بعض أمرها فغضبت وصاحت :اتق الله ، ولا تقل إلا حقاً .

وذهل سيدنا أبو بكر مما سمع من ابنته ، وأغضبه أن تقول لرسول الله : اتق الله ، ولا تقل إلا حقاً ، ولم يتمالك نفسه ، فلطم عائشة على أنفها لطمة تقطر منها الدم ، فولت هاربة من أبيها تعتصم برسول الله وتحتمي به ، والتصقت بظهره الشريف ،

فحماها وقال لصاحبه رضي الله عنه وجزاه كل خير : « أقسمت عليك لما خرجت ، فإنا لم ندعك لهذا » .

فخرج أبو بكر إجـلالاً لرسول الله ، فابتعدت عائشة عن رسول الله ، فسألها أن تدنو منه ، ولكنها أبت إباء ، فتبسم سيدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « لقد كنت قبلُ شديدة اللزوق بي » .

وكانت عائشة في حجة الوداع مع سائر أزواج رسول الله ، وكان متاع عائشة خفيفاً وبعيرها قوي ، ومتاع صفية ثقيل وبعيرها بطيء ، وبطؤ سير الركب فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بنقل متاع صفية إلى بعير عائشة ومتاعها إلى بعير صفية ، فغضبت عائشة وصاحب : يا لَعباد الله ! غلبتنا هذه اليهودية على رسول الله !!

فقال لها الرسول الكريم الرؤوف الرحيم ذو الخلق العظيم في أسلوبه اللطيف الحليم : « يا أم عبد الله (كنية عائشة) ، إن متاعك كان فيه خف ، وكان متاع صفية فيه ثقل ، فأبطأ الركب ، فحولنا متاعها على بعيرك ، وحولنا متاعك على بعيرها » !..

وكان انفعال سيدتنا عائشة شديداً ، فردت على رسول الله بقولها الجافي الغليظ : أليس تزعم أنك رسول الله ؟..

فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال في أدبه العالي الذي لا أدب مثله : « أو في شك أنت يا أم عبد الله » ؟..

وكانت الحدة لم تفارق عائشة فردت على رسول الله : أولست تزعم أنك رسول الله ؟ فهلا عدلت ؟!

وسمع أبو بكر قالة ابنته ، وساءته وآذته ، فأقبل اليها في

عنف وشدة ولطم وجهها ، فانبرى له رسول الله وقال :
« مهلاً ، أبا بكر » فقال : يا رسول الله ، ألم تسمع ما قالت ؟
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الغَيْرَى ألا تبصر
أسفل الوادي من أعلاه » !..

هذا رسول الله في معاملة أزواجه ، وهي معاملة ينفد معها
صبر الحليم ، ولكنه الرسول الكريم الذي وصفه الله تبارك
وتعالى في كتابه العزيز بقوله الحق : « وانك لعلى خلق عظيم » .

فعائشة تقذف على رسول الله قذائف مصمية ، ومع هذا
يتجاوز ويعفو ويصفح ، ولو كان أحلم الحلماء في موقفه لثار
وغضب لذات نفسه ، ولكنه رسول الله يعلم أمته أدب التعامل
مع المرأة .

ولو أن الأزواج عاملوا نساءهم بشيء من أدب محمد عليه
الصلاة والسلام لما تهدمت أسر ، ولما انهارت المجتمعات ،
ولما تشرد الأطفال ، ولو أن المجتمعات المسلمة أخذت ببعض
معاملة الرسول الكريم أزواجه لسلمت من التصدع الذي أصابها .

فالله عز وجل جعل القوامة في يد الرجل لأنه أقدر على
الصفح والتجاوز عن المرأة التي يقسرها تكوينها على أن تأتي
بأعمال تثير الرجال ، ولكن الرجل مطلوب اليه بحق القوامة
آن يتجاوز وأن يحتمل ، لأن القوامة لطف ورعاية وحنان أكثر
منها تسلطاً وجبروتاً ، والدليل على ذلك رسول الله صلى الله
عليه وسلم نفسه ، فقوامته جعلته لطيفاً كريماً ، يتجاوز عن
حقه ، ويؤثر اللين على الشدة .

ولو أن امرأة قالت لزوجها : اتق الله ، ولا تقل إلا حقاً
لثار لكرامته ، وأنزل بامرأته أشد العقاب ، والمرأة التي تقذف

رجلها بهذه القذيفة الملتهبة أهل للعقوبة ، ولكن ، أين فضل الفاضل وحلم الحليم وعفو القادر ؟..

ولو تدبرنا سيرة رسول الله مع أزواجه ، وتخلقنا ببعض أخلاقه مع نسائه لما تصدع مجتمعنا المسلم ، ولبقي — كما أراد له الرسول — مجتمعاً فاضلاً سليماً .

وإن رسول الله قال : «لا يغلبهن إلا لئيم ، ولا يغلبن إلا كريم» ، وهي كلمة تجبر الرجال على العفو ، وان العفو مع القدرة يثمر ثمرته الطيبة في نفس المرأة ، وهذه هي «لطافة» الإنسانية وسماحتها ، وعليها قوام الأسرة .

ولكن ، يجب على المرأة ألا يخرج بها كرم الرجل عن حدها إلى ما تصير معه لئيمة ، لأن ليس معنى الغلبة أن تعطي قيادها هواها فتسيء إلى الرجل الصابر الكريم ، بل يجب على المرأة أن تحرص على رضا زوجها ، وتبادل صبره وكرمه بصبر وكرم من قبلها حتى يكون التزاوج صحيحاً ، والتعادل مضموناً ، والعدالة سائدة .

ولا يطلب من الرجل أن يكون كريماً ثم تعفى المرأة عن هذا المطلب ، بل هما شريكان في ذلك والا كان الجور الممنوع في شرعة الإسلام .

ومع هذا فالرجل جدير به أن ينظر إلى عمل رسول الله ويتأساه ، لأن في يده القوامة وفي ملكه الرئاسة .

وإن بيت رسول الله أبلغ مثل على ما يجب أن يتخلق به الرجل المسلم ، فإذا صبر رسول الله على ما صدر من عائشة فكل مسلم مفروض عليه أن يجعل رسول ان الله أسوة إذا أراد

عمران بيته ، وسلامة مجتمعه ، وضمان حياة منزله .

وما وقع في بيت رسول الله من حوادث يملي على المسلم أن يتدبره في حياته الزوجية إذا أراد لها البقاء .

كانت سودة زوج رسول الله تنشد على مسمع من عائشة وحفصة : عدي وتيم تبتغي من تحالف ، وكانت مع سودة أم سلمة ، فثارت عائشة وحفصة — وكانتا متحابتين وجبهة واحدة كما كانت أم سلمة وسودة جبهة أخرى — وقالت عائشة لحفصة : إن سودة تعرض بي وبك ، فإذا رأيتني وقمت فأخذت برأسها فأعينيني .

ونهضت عائشة إلى سودة وأخذت برأسها ، وأسرعت حفصة تعينها ، فنهضت أم سلمة تعين سودة ، ونشبت بينهن معركة حامية دارت رحاها في بيت رسول الله الذي كان غائباً .

وسمع الناس المعركة فأسرعوا إلى رسول الله يخبرونه أن نساءه يتقاتلن ، فأسرع إلى بيته الكريم وقال لهن : « ويحكنّ ! مالكن ؟ ! » .

فأسرعت عائشة تقول : ألا تسمعها يا رسول الله تقول : عدي وتيم تبتغي من تحالف ؟ !..

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ويحكن ! ليس عديكن ولا تيمكنّ ، إنما هو عدي لهم وتيم لهم » .

وأطفأ الرسول الكريم الفتنة ، وصبر على نسائه ، ولو كان مكانه غيره وكان أحلم الحلماء لفزع إلى السوط أو العصا يقنعهن بها رجاء التأديب ، ولكنه آثر اللطف والذوق الحسن واللين والصبر والنصيحة .

إنه لم يدخل في المعركة يزيدها اشتعالاً كما يفعل الناس ، بل دخل مصلحاً يقضي على الشر ويطفئ الفتنة ، فوفق أكمل توفيق ، وهكذا يجب أن يكون الرجل في بيته ومع أهله .

وكانت سيدتنا عائشة «امرأة» بكل معنى الكلمة ، وكان فيها حدة معروفة في آل أبي بكر ، وكانت فيها غيرة دائمة الاشتعال ، لا تنطفئ ، وإن خبت فهي إلى اشتعال ، وكان شبابها وحيويتها وتدفقها بالنشاط معواناً لحدتها وخصامها ، فهي تحتد وتخاصم وتدبر «المقالب» رغبة منها في التفرد برسول الله والاستئثار به دون أن يكون لها شريكات فيه ، وكان أذنها إلى عواطفها دون أن تكون لعقلها ، فهي في سبيل حبها لرسول الله لا تبالي الوسائل التي تنتهي به إلى أن يكون هذا الحب من نصيبها وحدها .

وفي سبيل استئثارها برسول الله لم تكن تبالي ، فبينها وبين حفصة اتفاق أقرب إلى العهد والميثاق ، ومع هذا لم تسلم حفصة من مكائد عائشة .

فذات مرة أبطأ رسول الله لدى حفصة ، وأطال مقامه لديها أكثر من الوقت المقرر لها ، وكان ذلك بسبب عسل أهدِيَتْه حفصة ، وعلمت عائشة وضرائرها بذلك ، وعلمن أن حفصة سقت رسول الله منه فأبطأ لديها ، وكان يحب الحلو.

واشتعلت الغيرة في قلب عائشة ، فأعدت مكيدة تنتقم بها من صديقتها حفصة ، وعرفت أن رسول الله سيغادر حفصة إلى سودة ، فقالت عائشة لسودة : إنه سيدنو منك إذا دخل عليك ، فقولي له : يا رسول الله ، أكلت مغافير ، فإنه سيقول لك : سقتني حفصة شربة عسل ، فقولي له : جرست نحلة

العرفط [1] .

وغادر رسول الله بيت حفصة إلى بيت سودة فقالت له : يا رسول الله ، أكلت مغافير ؟! قال : «لا» ، فقالت : ما هذا الريح الذي أجده منك ؟ قال : «سقتني حفصة شربة عسل» فقالت : جرست نحلة العرفط !

ثم انتقل من سودة إلى بيت عائشة فذكرت له بما ذكرت سودة ، ثم مضى إلى صفية فقالت له ما قالت ضرتاها .

وتأذت نفس الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلما دار إلى حفصة ارادت أن تقدم له شربة عسل فاعتذر لها قائلاً : «لا حاجة لي فيه» .

فأسفت سودة وقالت لعائشة : سبحان الله ، والله ، لقد حرمناه ، فردت عليها عائشة : اسكتي .

وكل هذه الحوادث تثبت غيرة عائشة اللاهبة ، فهي تثور وتكيد رجاء أن يكون رسول الله لها وحدها ، وما كانت تطيق الشركة فيه من قبل ضرائرها ، وكل امرأة تريد أن تستأثر بزوجها المحبوب وتنزعه من ضرائرها .

وكان رسول الله يعرف منها هذا الحب والاخلاص ، وكان يقدرها حق قدرها مع العدل دون أن ينقاد لعواطفها وغيرتها ، ولكنه كان يمنحها من نفسه ما لا يمنح سواها من أزواجه الطيبات الطاهرات ، فقد خصها بكثير من التكريم والإدلال لم

---

١ العرفط : شجر شوكي يسيل منه صمغ حلو كريه الرائحة يسمى مغافير ، وجرست : أكلت . ونسب بعض كتب السيرة هذه الحادثة إلى حفصة ، والصحيح أنها وقعت في بيت زينب بنت جحش .

يكن للأخريات لأنهن تجاوزن السن التي تتطلب ذلك .

أما عائشة فكانت أصغر زوجاته وأجملهن ، وأعلمهن ، وأحذقهن وأحفظهن للشعر ، فكانت أجدرهن بعاطفة الزوج التي تستحقها شابة صغيرة دون من تجاوزن الشبيبة إلى الكهولة أو الشيخوخة .

ومن هنا كان تدليل رسول الله لها . فقد جاء في سيرته العطرة الكريمة أن أبابكر دخل على ابنته عائشة في يوم منى ، فإذا قينتان عندها تغنيان بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم الذي كان مضطجعاً ومسجى في ثوبه ، وأنكر أبو بكر ما يرى ، فصاح منكراً : أعند رسول الله يُصْنَع هذا ؟!

فكشف رسول الله عن وجهه وقال له : « دعهن فإنها أيام عيد » !..

وبلغ من تدليل رسول الله لعائشة ما روته رضي الله عنها إذ قالت : « كان يوم عيد يلعب فيه السودان بالدرق والحراب فإما سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإما قال : « تشتهين تنظرين » فقلت : نعم ، فأقامني وراءه ، خدي على خده وهو يقول : « دونكم يا بني أرفدة » ، حتى إذا مللت قال : « حسبك » قلت : نعم ، قال : « فاذهبي » !...

وقالت عائشة : « رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يسترني ، وأنا أنظر إلى الحبشة وهم يلعبون في المسجد ، فزجرهم عمر فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « دعهم ، أمنا بني أرفدة » يريد : لكم الأمن .

وهذه المعاملة لم تحظ بها غير عائشة ، وهي أهل لهـــا ،

لصغر سنها دون ضرائرها ، ولهذا كان يدللها ويتيح لها فرص المتعة البريئة ليدخل على قلبها البهجة والسرور ، حتى لا يكون البيت سجناً مملاً ما دامت هذه المتعة يبيحها الإسلام الذي أحل الطيبات ، ولم يحجر على الزوج الكبير في سنة تدليل زوجته الشابة الصغيرة ، بل أباحه له .

وأكرم برسول الله زوجاً ، فقد وضع للحياة الزوجية من القواعد والأصول المبنية على تسامح الزوج والتغاضي وايثار اللين على الشدة ، والعفو ، والصبر على مكائد المرأة ومتاعبها وحماقتها ، والبر بها في كل حالاتها التي تتجاوز فيه الحد ما لو أخذ به المسلمون لسعدوا وسعدت معهم نساؤهم .

إنهن يؤذين رسول الله بغيرتهن ، ويحرجنه بمطالبهن ، ويتآمر بعضهن عليه من الحب والغيرة ، فيصبر ويعفو . وتمادين في أمر دنياهن ، ورأين زوجهن صاحب الأمر في المجتمع الإسلامي كله ، وسبق لهن أن رأين الحاكم بأمره يحيا هو وأسرته وذوو قرباه في رغد وترف ونعومة ، فلماذا لا يكون لزوجه الذي حوى مجد الدين والدنيا حياة كحياة الملوك والحاكمين ؟.. ولماذا لا يلبسن ولا يأكلن ولا يحين كما تحيا نساؤهم ؟

واجتمعت كلمة نسائه على مطالبته بالزينة ، والزيادة في النفقة ، وما كان رسول الله ليؤثر دنياه على آخرته ، وما كان ليستجيب لنداء دنيا نسائه فيفقدهن شرف النبوة ، فلم يجبهن إلى ما طلبوا .

وأراد رسول الله أن يؤدبهن ليضمن لهن بفضل الله رضا ربهن ورسوله فقرر أن يعتزل المجتمع كله وهن معه شهراً رجاء

أن تصلح أمورهن ، ويقلعن عن الوقوع في الغرور ، ويترفعن عن زخارف الدنيا الخاصة بالمعدة والجسد .

واعتزل رسول الله نساءه ، ولم يخرج إلى أصحابه ، فأخذ بعضهم يسأل بعضاً عن سبب العزلة ، فلم يجدوا لدى أحد جواباً ، واشتد بالمسلمين الكرب لهذا الحدث الجليل ، ولم يدروا أطلق رسول الله نساءه ، ولم يقفوا على سبب الهجر والاعتزال ، وإن اعتقد بعضهم أنه طلق ، ولم يدر أقرب المقربين اليه السبب ، حتى عمر بن الخطاب لم يكن يعلم بشيء ، فقال لهم : لأعلمن لكم شأنه .

ومضى عمر إلى رسول الله فاستأذنه ، فأذن له ، فسلم على رسول الله ثم قال : أطلقتهن يا رسول الله ؟ قال : « لا » فقال عمر : يا رسول الله ، اني تركت المسجد والمسلمون يقولون : طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه ، أفأنزل وأخبرهم أنك لم تطلقهن ، قال : « نعم ، ان شئت » .

وخرج عمر مسرعاً إلى المسجد ، وقام على بابه ، ونادى بصوته الجهوري : لم يطلق النبي عليه السلام نساءه .

وانبعثت الطمأنينة في قلوب المسلمين مع كلمة عمر رضي الله عنهم جميعاً ، ولكن القلق ما زال يسودهم لاعتزال رسول الله المجتمع كله ، وكان أبو بكر وعمر أشدهم قلقاً ، فهذا رسول الله معتزل لا يخرج ، وشعر المسلمون بفراغ ممل لغياب رسول الله عنهم .

وأسرع أبو بكر إلى منزل رسول الله فرأى ناساً كثيراً جلوساً على بابه لا يؤذن لهم ، فاستأذن لنفسه ، فأذن له فدخل ،

وأقبل عمر بن الخطاب فرأى ما رأى أبو بكر ، فاستأذن لنفسه فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبصرا الرسول ساكناً واجماً وبين يديه نساؤه ، وأدرك الصاحبان أن في الأمر ما آذى رسول الله .

وألهم الله أبا بكر أن يصنع شيئاً يرد به إلى رسول الله انبساط نفسه الشريفة ، ويدخل اليها السرور ، وأدرك أن لاجتماع نسائه حوله حصار منهن لرسول الله يطلبن اليه النفقة ، فقال : يا رسول الله ، لو رأيت بنت خارجة سألتني النفقة فقمت اليها فوجأت عنقها ! فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « هن حولي كما ترى يسألنني النفقة » !..

فنهض أبو بكر إلى ابنته عائشة يجأ[1] عنقها ، وعمر بن الخطاب إلى ابنته حفصة يجأ عنقها ، وكل منهما يقول لابنته : تسألن الرسول ما ليس عنده !.. فقلن : لا نسأله شيئاً أبداً ليس عنده .

ولم يرجع رسول الله عن قراره ، وثبت على اعتزاله نساءه شهراً حتى أنزل الله في ذلك قرآناً كريماً يبين للنبي صلى الله عليه وسلم وأزواجه وللمؤمنين حكم الله تعالى فقال :

« يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً . وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً » .

ولما كانت عائشة أحب أزواج رسول الله إليه فقد بدأ بها ،

---

١ وجأ عنقه : ضغط عليه .

وقال لها : «إني سأعرض عليك أمراً فلا عليك ألا تعجلي به حتى تشاوري أبويك» . فقالت : وما هذا الأمر ؟ فتلا عليها رسول الله الآيتين الكريمتين ، فقالت : أفيك يا رسول الله أستشير أبوي ؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة !

وظهر الفرح على وجه الرسول الكريم من جواب عائشة ، فقد أرضته باختيار الخير كله ، وذكر لها أنه مخبر نساءه ، وذاكراً لهن جوابها ، فبرزت طبيعة المرأة في أم المؤمنين عائشة ورجته ألا يخبرهن بجوابها وبما اختارت ، فلم يوافقها ، لأن مقصد عائشة أن تترك الحرية لضرائرها في الاختيار ، فربما تختار بعضهن الدنيا وزينتها فيزداد نصيبها من رسول الله ، وتكون الرابحة .

ولكن الرسول الكريم يريد الخير للناس جميعاً ، وخير الناس خيرهم لأهله ، وهو خيرهم لأهله كما جاء في حديث شريف له صلى الله عليه وسلم ، فهو يريد لأهله كل خير ، ويرجو لهن رضا الله ، فأخبرهن بالوحي الذي نزل عليه ، وأعلمهن بجواب عائشة ، فاخترن بالإجماع ما اختارت عائشة .

- ٣ -

حديث الإفك

قالت سيدتنا عائشة رضي الله عنها في حديث الافك ما ننقله بنصه :

« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفراً أن يقرع بين أزواجه ، فأيهن خرج سهمها خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

« فأقرع بيننا في غزوة غزاها ، فخرج فيها سهمي ، فخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدما أنزل الحجاب ، فكنت أحمل في هودجي وأنزل فيه ، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته تلك وقفل دنونا من المدينة قافلين آذن ليلة بالرحيل ، فقمت حين أذنوا بالرحيل ، فمشيت حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي فلمست صدري فإذا عِقْد لي من جزع ظفار قد انقطع ، فرجعت فالتمست عقدي ، فحبسني ابتغاؤه .

« وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلوني فاحتملوا هودجي ،

فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب عليه ، وهم يحسبون اني فيه ، وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يَهْبُلْنَ [1] ، ولم يغشهن اللحم ، إنما يأكلن العلقة [2] من الطعام ، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه .

« وكنت جارية حديثة السن ، فبعثوا الجمل فساروا ، ووجدت عِقدي بعدما استمر الجيش ، فجئت منازلهم وليس بها منهم داع ولا مجيب . فتيممت منزلي الذي كنت به ، وظننت أنهم سيفقدونني فيرجعون إلي .

« فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت ، وكان صفوان ابن المعطل السلمي ثم الذكواني من وراء الجيش ، فأصبح عند منزلي . فرأى سواد إنسان فعرفني حين رآني ، وكان رآني قبل الحجاب . فاستيقظت باسترجاعه [3] حين عرفني ، فخمرت [4] وجهي بجلبابي [5] .

« ووالله . ما تكلمنا بكلمة . ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه .

« وهوى حتى أناخ راحلته . فوطئ على يدها ، فقمت اليها . فركبتها .

« فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش موغرين في نحر

---

١ يهبلن : يكنز لحمهن .
٢ العلقة : القليل من الشيء .
٣ الاسترجاع : تلاوة قول الله تعالى : « إنا لله وإنا إليه راجعون » .
٤ خمر : غطى .
٥ الجلباب : الثوب .

الظهيرة [1] وهم نزول .

« فهلك فيّ من هلك ، وكان الذي تولى كبر الإفك عبد الله ابن أبي بن سلول .

« وأخبِرت أنه كان يشاع ويُتَحَدّث به عنده ، فيقرّه ويستمعه ويستوشيه [2] .

« فقدمنا المدينة ، فاشتكيت حين قدمت شهراً والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك ، لا أشعر بشيء من ذلك ، وهو يريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله صلى الله عليه وسلم اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي ، إنما يدخل عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسلّم ويقول : « كيف تيكم » ؟ ثم ينصرف ، فذلك يريبني ، ولا أشعر بالشر حتى خرجت حين نَقِهْت ، فخرجت مع أم مسطح قبل المناصع [3] ، وكان متبرزنا [4] ، وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل ، وذلك قبل أن نتخذ الكنف [5] قريباً من بيوتنا ، وأمرنا أمر العرب الأول في البرية قبل الغائط [6] ، وكنا نتأذى

---

١ موغرين في نحر الظهيرة ، أوغر : دخل في وقت الوغرة ، والوغرة : شدة توقد الهاجرة ، ونحر الظهيرة : أولها ، والظهيرة : حد انتصاف النهار ، والمعنى : انهما دخلا في وقت الهاجرة وقت توسط الشمس في السماء .

٢ يستوشيه : يبحث عنه ويجمعه .

٣ المناصع : جمع منصع ، وهو الموضع الخالي لقضاء الحاجة ، وقيل : المناصع : مواضع مخصوصة خارج المدينة .

٤ المتبرز : الفضاء الواسع تقضى به الحاجة .

٥ الكنف : جمع كنيف ، وهو المكان المستور ببناء أو نحوه ستراً لمن يقضي حاجته .

٦ الغائط : المنخفض من الأرض يقصد لقضاء الحاجة لأنه أستر ، ثم أطلق على الحاجة نفسها .

بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا ، فانطلقت أنا وأم مسطح ، – وهي ابنة أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف ، وأمّها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق ، وابنها مسطح بن أثاثة ابن عباد بن المطلب – فأقبلت أنا وأم مسطح قِبَل بيتي فرغنا من شأننا ، فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت : تعس مسطح ! فقلت لها : بئس ما قلت ! أتسبين رجلاً شهد بدراً ؟ فقالت : أي هنتاه[1] ، ولم تسمعي ما قال ، قلت : ما قال ، فأخبرتني بقول أهل الإفك .

« فازددت مرضاً على مرضي ، فلما رجعت إلى بيتي دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسلّم ، ثم قال : « كيف تيكم » ؟ فقلت له : أتأذن لي أن آتي أبوي ؟ – أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما – فأذن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم .

« فقلت لأمي : يا أمتاه ، ماذا يتحدث الناس ؟

قالت : يا بنية ، هوني عليك ، فوالله ، لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها لها ضرائر إلا كَثّرْنَ عليها ! فقلت : سبحان الله ، أو لقد تحدث الناس بهذا ؟

« فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ، ولا أكتحل بنوم ! ثم أصبحت أبكي !!

« ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب

---

[1] يا هنتاه : يا هذه ، وقيل : يا بلهاء ، وصفت بالبله لقلة معرفتها بمكايد الناس وشرورهم .

وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يسألهما ويستشيرهما في فراق أهله .

« فأما أسامة فأشار على رسول الله صلى الله عليه وسلّم بالذي يعلمه من براءة أهله ، وبالذي يعلم لهم في نفسه ، فقال أسامة : أهلك ، ولا نعلم إلا خيراً .

« وأما علي فقال : يا رسول الله ، لم يضيق الله عليك ، والنساء سواها كثير ، وسل الجارية تصدقك .

« فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة [1] فقال : أي بريرة ، هل رأيت من شيء يريبك ؟

« قالت له بريرة : والذي بعثك بالحق ، ما رأيت عليها أمراً قط أغمصه ، غير أنها جارية حديثة السن ، تنام على عجين أهلها ، فتأتي الداجن ، فتأكله .

« فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه فاستعذر من عبد الله بن أبي — وهو على المنبر — فقال : « يا معشر المسلمين ، من يعذرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي ، والله ، ما علمت على أهلي إلا خيراً ، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عنه إلا خيراً ، وما يدخل على أهلي إلا معي » .

« فقام سعد بن معاذ [2] أخو بني عبد الأشهل فقال : أ:

١ حقق الإمام العلامة ابن القيم أن الجارية التي سئلت لم تكن بريرة ، لأنها كاتبت وأعتقت بعد هذا بمدة طويلة ، إنما قال الإمام علي كرم الله وجهه : وسل الجارية تصدقك ، فظن بعض الرواة أنها بريرة فسماها .

٢ في رواية ابن اسحاق أنه أسيد بن حضير ، وحقق العلامة ابن القيم في كتابه (زاد المعاد) أن سعد بن معاذ كان قد توفي بعد غزوة بني قريظة قبل حديث الإفك ، وان الذي قال هو أسيد بن حضير ، وكذلك قال العلامة ابن حزم مستشهداً برواية عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن عائشة، وليس فيها ذكر سعد بن معاذ (ظلال القرآن ، لسيد قطب ١٨ : ٧١) .

يا رسول الله أعذرك ، فإن كان من الأوس ضربت عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا .

« فقام رجل من الخزرج — وكانت أم حسان بنت عمه من فخذه — وهو سعد بن عبادة ، وهو سيد الخزرج ، وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ، ولكن احتملته الحمية فقال لسعد : كذبت لعمر الله ، لا تقتله ، ولا تقدر على قتله ، ولو كان من رهطك ما أحببت أن تقتله !..

« وقام أسيد بن حضير — وهو ابن عم سعد — فقال لسعد بن عبادة : كذبت ، لعمر الله ، لنقتلنه ، فإنك منافق تجادل عن المنافقين .

« فثار الحيان : الأوس والخزرج ، حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر ، فلم يزل يخفّضهم حتى سكتوا وسكت .

« فبكيت يوم ذلك كله لا يرقأ لي دمع ، ولا أكتحل بنوم .

« وقد أصبح أبواي عندي ، وقد بكيت ليلتين ويوماً ، لا يرقأ لي دمع ، ولا أكتحل بنوم ، حتى إني لأظن أن البكاء فالق كبدي .

« فبينا أبواي جالسان عندي وأنا أبكي ، فاستأذنت عليّ امرأة من الأنصار ، فأذنت لها ، فجلست تبكي معي ، فبينا نحن على ذلك دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم علينا ، فسلّم ثم جلس .

« ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها ، وقد لبث شهراً

لا يوحى إليه في شأني بشيء ، فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس ، ثم قال : «أما بعد ، يا عائشة ، إنه بلغني عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه ، فإن العبد إذا اعترف ثم تاب ، تاب الله عليه » .

« فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قلص[1] دمعي حتى ما أحس منه قطرة ، فقلت لأبي : أجب رسول الله صلى الله عليه وسلم عني فيما قال ، فقال أبي : والله ، ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت لأمي : أجيبي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال ، قالت أمي : والله ، ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

« فقلت — وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ من القرآن كثيراً: لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم ، وصدقتم به ، فلئن قلت لكم : إني بريئة ، لا تصدقوني ، ولئن اعترفت لكم بأمر — والله يعلم أني منه بريئة — لتصدقُني : فوالله ، لا أجد لي ولكم مثلاً إلا أبا يوسف حين قال : « فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » .

« ثم تحولت ، واضطجعت على فراشي ، والله يعلم اني حينئذ بريئة ، وأن الله مبرئي ببراءتي ، ولكن ، والله ، ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحياً يتلى ، لشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ بأمر ، ولكن ، كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا يبرئني الله بها .

---

١ قلص : ذهب .

« فوالله ، ما رام رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه ، ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء[1] حتى إنه ليتحدّر منه من العرق مثل الجمان[2] وهو في يوم شات من ثقل القول الذي أنزل عليه ، فسُرِّيَ[3] عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك ، فكانت أول كلمة تكلم بها أن قال : « يا عائشة ، أما الله فقد برأك » !..

« فقالت لي أمي : قومي اليه . فقلت : والله ، لا أقوم اليه ، فإني لا أحمد إلا الله عز وجل .

« وأنزل الله تعالى :

« إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم • لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين • لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون • ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسّكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم • إذ تَلَقَّوْنَه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم • ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم • يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين • ويبين الله لكم الآيات والله عليم

١ البرحاء (على وزن عظماء) : الشدة .

٢ الجمان : اللؤلؤ .

٣ سري عنه : زال عنه ما كان يجده .

حكيم • إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون • ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم [1] » .

« أنزل الله هذا في براءتي » .

وتقول سيدتنا عائشة رضي الله عنها :

« قال أبو بكر — وكان ينفق على مِسْطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره — : والله ، لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال ، فأنزل الله : « ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا اولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم » . قال أبو بكر : بلى . والله ، إني لأحب أن يغفر الله لي ، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه ، وقال : والله . لا أنزعها منه أبداً » .

وقالت عائشة :

« وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل زينب بنت جحش عن امري ، فقال لزينب : « ماذا علمت أو رأيت » ؟ فقالت : يا رسول الله ، أحمي سمعي وبصري ، والله ما علمت إلا خيراً » .

قالت عائشة : « وهي التي كانت تساميني من أزواج الرسول صلى الله عليه وسلم فعصمها الله بالورع ، وطفقت أختها حَمْنة تحارب لها فهلكت فيمن هلك » .

---

١ سورة النور : ١١ — ٢٠ .

والذين اخترعوا الإفك وروّجوا له رئيس المنافقين عبد الله ابن أبي بن سلول ، وثلاثة غيره هم : مسطح بن أثاثة ، وحمنة بنت جحش ، وأخوها عبيد الله بن جحش ، وقد عوقب هؤلاء الثلاثة بالحد الشرعي على القذف ، وهو ثمانون جلدة .

أما رئيس المنافقين فلم يعاقب بالحد لأنه منافق ، والحد إنما جعل للتطهير ، وليس رئيس المنافقين أهلاً لهذه الرحمة ، فترك أمره لله عز وجل .

وفي بعض الروايات : ان سيدنا حسان بن ثابت رضي الله عنه كان ممن اشترك في حديث الإفك ، وأنه عوقب بالحدّ ، ولكن الصحيح غير ذلك ، فهو لم يشترك في الإفك ولم يحد ، وبرأته عائشة رضي الله عنها ، وهو نفسه نفى عن نفسه التهمة .

ولما سئلت نفت عنه التهمة ، ودعت له ، وذكرته بخير ، ورجت أن يدخله الله الجنة لذبه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكرت أم المؤمنين أن حساناً رضي الله عنه لم يقل فيها غير الحق والخير ، وأنه القائل فيها :

مهذبة قد طيّب الله خيمها
وطهرها من كل سوء وباطل
فإن كنتُ قد قلتُ الذي قد زعمتمُ
فلا رفعت سوطي إليّ أناملي
وكيف وودي ما حييت ونصرتي
لآل رسول الله زين المحافل

* * *

ذلك حديث الإفك كما روته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بأسلوبها الجزل الرصين ، وما روته هو الحق الـــذي لا مراء فيه .

وتاريخ عائشة منذ نشأتها الأولى حتى لقيت الله سبحانه وتعالى تاريخ أبيض ناصع شديد النظافة ، وحديث الإفك لا يمكن أن يصدق عليها ، بل لا يمكن للذي خلق وضمير إلا أن ينفي عنها ذلك الإفك الباطل ، ويثبت لها الطهر والعفاف والتنزه عن أقل من الإفك .

إن حياة أم المؤمنين تثبت لها كل خليقة كريمة لا توصف بها إلا خير النساء ، ورحم الله أم المؤمنين ، وغفر عن أولئك الذين اشتركوا في الأثم ، بعد أن طهرهم الله بالحد .

\- ٤ -

بعد رسول الله

مات رسول الله صلى الله عليه وسلم فشعرت سيدتنا عائشة بحزن عميق ، ولولا الدين الذي جاء به ، والقرآن الذي نزل عليه ، وذكراه الطيبة العطرة المتجددة لهلكت من الحزن ، ولكنها صبرت على أفدح مصاب ، ولم تفارقها ذكراه حتى لقيت ربها آمنة مطمئنة .

وحملت مع من حملوا الإسلام أعباء الدعوة اليه والاشتغال به ، وتبصير الناس بحقائقه ، وافتائهم بالحق .

وكانت حجة الإسلام ، ومن أهم مراجعه ، ويرجع اليها أكبر أكابر الصحابة ينهلون من علمها وفقهها ، فقد كانت من أعلم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن أفقه فقهائهم ، وأعظم من يعرف حياة الرسول الكريم الخاصة ، وأفقه المسلمين طراً بفقه النساء ، وعنها أخذ أكثره .

يقول زوجي في كتابه المخطوط «عائشة» في الفصل الذي كتبه بعنوان : «ثقافتها وعلمها وبركاتها» ما أنقله بنصه :

«لم يجئ في تاريخ الإسلام منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم حتى اليوم مثل عائشة رضي الله عنها في عبقريتها العلمية والأدبية ، وما لأم المؤمنين من نظير في الفقه والفتوى ورواية الحديث ومعرفة القرآن إلا قليل من أكابر الصحابة .

« فهي تحفظ الشعر وترويه ، وبصرها ثاقب بالأنساب ، وبلغت في الطب بنسبة ذلك الزمان مبلغاً رفيعاً . ولم يك بين النساء في بلاغتها من تدنو من رحابها ، وندر في الرجال من يبزها ، وقليل منهم الذين يدانونها .

« ولو لم يبق من الأحاديث الشريفة إلا ما روته أم المؤمنين عائشة لكان فيها غناء أي غناء في الحياة الإسلامية كلها ، لأنه لن ينقص من الإسلام عقيدة وشريعة شيء إذا أضيف اليها أبو هريرة وبضعة نفر آخرون .

« فهي تروي من الأحاديث ألفين ومئتين وعشرة أحاديث ، فيها ما يتصل بالعقيدة ، بل فيها العقيدة كلها قبل أن يخلق علماء الكلام ، وفيها من الشريعة ما فيه الغنية إذا أريد الايجاز والاستنباط منه ، والقياس عليه ، ويكفي ان فقه النساء من روايتها .

« ولا يزيد عليها في عدد الأحاديث المروية إلا أبو هريرة رضي الله عنه وجزاه عن الإسلام والمسلمين كل خير ، فقد روى خمسة آلاف حديث وثلاثمئة واربعة وسبعين حديثاً ، وإلا سيدنا عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما وأسكنهما الجنة ، فقد روى ألفين وستمئة وثلاثين حديثاً ، وإلا سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه وأثابه ، فقد روى ألفين ومئتين وستة وثمانين حديثاً .

«وعائشة تجيء بين رواة الحديث الاجلاء الرابع ، وكانت حجة في الرواية ، ومن مشاهير نقاد الحديث ، وكان أكابر الصحابة يستفتونها ويراجعونها فيما يروون أو يعرفون ، وكانت تنقد وتصحح وترد وتناقش نقاشاً علمياً بعيداً عن الهوى» .

ويقول زوجي :

«وشهادات من عرفوها ترجح على أكبر الشهادات الجامعية وهي — بعدُ — شهادات حق في مجتهدة نالتها بجدارة . بل هي أعظم من الشهادات الجامعية ، فملايين يحملونها ولا أثر لهم في الحياة ، أما شهادات عائشة فهي حق في صاحبة علم هي في واقعها بمثابة «الجامعة» التي يجد فيها الإنسان كليات مختلفة ، يجد الطب ، والأدب ، والشريعة ، والأصول ، والحديث ، وكل أبواب الفقه . وفقه النساء ، والتدبير المنزلي ، والتاريخ ، والجغرافيا ، وغير ذلك من الآداب والفنون والعلوم .

« يقول أبو بردة بن أبي موسى : ما أشكل علينا أصحاب محمد أمر قط فسألنا عنه عائشة وجدنا عندها منه علماً .

«وقال مسروق بن الأجدع بن مالك الهمداني الكوفي العابد الثقة الفقيه الحجة : رأيت مشيخة أصحاب محمد الأكابر يسألونها عن الفرائض .

«وكان مسروق إذا حدّث عن عائشة يقول : حدّثتني الصادقة بنت الصديق حبيبة حبيب الله» .

وقال عروة بن الزبير : ما رأيت أحداً أعلم بالقرآن

ولا بفرائضه ولا بحلال ولا بحرام ولا بشعر ولا بحديث العرب ولا بنسب من عائشة .

وقال أبو عمر بن عبد البر : إن عائشة كانت وحيدة عصرها في ثلاثة علوم : الفقه . والطب . والشعر .

وقال الزهري : لو جمع علم عائشة بعلم جميع أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وجميع النساء كان علم عائشة أكثر ، وفي رواية : أفضل .

وقال المقداد بن الأسود : ما كنت أعلم أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم بشعر ولا فريضة من عائشة .

وقال عطاء بن أبي رباح الفقيه العليم : كانت عائشة أفقه الناس ، وأعلم الناس ، وأحسن الناس رأياً في العامة .

وفي شرح الزرقاني وفتح الباري : إن عائشة كانت فقيهة آية في الفقه ، حتى قيل : إن ربع الأحكام الشرعية منقول عنها .

وقال الذهبي في الكاشف : إن عائشة أفقه نساء الأمة .

وهناك أقوال وشهادات كثيرة في أم المؤمنين عائشة . وكلها تثبت عبقريتها التي تعد آية في العبقريات . وما ذكرناه يكفي ، فكلها تجمع على تفوقها في كثير من العلوم والآداب والفنون ، وتفردها في بعضها .

وجعل الله علم أم المؤمنين غزيراً واسعاً مثمراً مباركاً فيه ، فقد صحبه الخلق العظيم ، إذ كانت آية في الخلق كما كانت

آية في العلم ، ومن هنا كانت نموذجاً رائعاً فيهما معاً .

وإن نساء العصر من المسلمات يجدن في عائشة القـــدوة الحسنة ، فلم يخرجها العلم والتبريز فيها عن الفضيلة والأخلاق الكريمة كما خرج ببعض النساء في عصرنا ، إذ نرى نساء خرجن على الأخلاق ظنــاً منهن أن العلم يقتضي هذا الخروج ولو تدبرن الحق لوجدن الدين ليس نقيضاً للعلم في الإسلام ، والأخلاق ليست خصماً للعلم ولا معرقلة لنيله .

فهذه عائشة لم يمنعها الإسلام من أن تكون من أكبر علماء الأرض في كثير من العلوم والفنون ، ولم يمنعها الحجاب من تدريس العلم للناس ، ومن الفتيا والوعظ والارشاد .

إن الإسلام بكل ما فيه من أوامر ونواه لا يمنع من العلم وطلبه ، بل يحث عليه ، ويدفع المسلم والمسلمة إلى التزود منه والتضلع فيه ، وأم المؤمنين عائشة أعظم دليل .

وإذا استطاع نساء النبي صلى الله عليه وسلم وأزواج الصحابة أن يكن آية في العلم والثقافة والمعرفة مع الاحتفاظ بالأخلاق الكريمة والحجاب فذلك أقطع دليل على ضرورة إقامة العلم على الفضيلة ، وإلا انقلب العلم بغير الأخلاق جواداً جامحاً يلقي بصاحبه في التهلكة .

وإن من الخير للعالم الإسلامي أن يطلب نساؤه العلم على أسلوب عائشة وسائر أمهات المؤمنين والصحابيات والتابعيات إذا أردن الخير لمجتمعهن ، ورضي الله عن عائشة أحسن الرضا ، وجزاها عن الإسلام كل خير .

---

* كل ما كتبته عن سيدتنا عائشة رضي الله عنها منقول بايجاز عن كتاب زوجي المخطوط واسمه « عائشة » .

مـارِيَة القبطيّة

أم ابراهيم بن محمد عليه صلوات الله وسلامه ، وهي قبطية ، بعث المقوقس حاكم الاسكندرية على عهد رسول الله مارية وأختها سيرين وبعض الهدايا في سنة سبع من الهجرة ، وبعث معهما خصياً شيخاً يسمى « مابور » كان أخا مارية ، بعث بهم وبالهدايا إلى رسول الله مع حاطب بن أبي بلتعة .

وأسلمت مارية وسيرين على يد حاطب الذي رغبهما في الإسلام ، فأسلمتا ، أما مابور فبقي على نصرانيته ، ولم يسلم إلا بالمدينة ورسول الله حي .

وكانت مارية بيضاء جميلة ، فاختارها رسول الله لنفسه ، ووهب أختها سيرين لشاعره العظيم شاعر الإسلام الأكبر حسان ابن ثابت الأنصاري رضي الله عنه .

ولم تكن سيدتنا مارية زوجة للرسول بل ملك يمينه ، وحلت له بهذه الملكية ، وأنزلها منزلاً خاصاً بها .

تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : « ما غرتُ على امرأة إلا دون ما غرت على مارية ، وذلك أنها كانت جميلة من النساء جعدة ، وأعجب بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان أنزلها أول ما قَدِم بها في بيت لحارثة بن النعمان ، فكانت

جارتنا ، فكان رسول الله عامة النهار والليل عندها ، حتى فرغنا لها ، فجزعت ، فحوّلها إلى العالية ، فكان يختلف اليها هناك ، وكان ذلك أشد علينا ، ثم رزق منها الولد وحرمنا منه » .

حملت مارية من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفرض عليها الحجاب ، ولما جاءها المخاض أولدتها سلمى مولاة رسول الله ، وكانت قابلتها ، ووضعت طفلاً جميلاً يشبه أباه رسول الله كل الشبه ، فأسرع أبو رافع زوج سلمى إلى رسول الله يبشره ، فوهب له عبداً تلقاء هذه البشارة التي أدخلت السرور على خير خلق الله ، وكان ذلك في شهر ذي الحجة سنة ثمان من الهجرة .

قال ابن عباس : لما ولدت أم ابراهيم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أعتقها ولدها » .

وعن ابن عباس أيضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أيما أمة ولدت من سيدها فإنها حرة إذا مات إلا أن يعتقها قبل موته » .

وعرف الأنصار حب رسول الله صلى الله عليه وسلم مارية وعلموا هواه فيها فتنافسوا في الوليد الجديد ، وأحبوا أن يفرّغوا مارية للنبي صلى الله عليه وسلم ، ويأخذوا أنفسهم برضاع الوليد .

وفرح رسول الله بولده رزقه الله إياه بعد انقطاع الولد بعد خديجة ، وسماه إبراهيم ، وصحبه إلى عائشة وقال لها : « انظري إلى شبهه » ، فأجابته على لسان غيرتها الحادة : ما أرى شيئاً !.

وفي اليوم السابع من مولده الكريم عق له بكبش ، وحلق رأسه ، حلقه له أبو هند ، وتصدق بوزن شعره فضة على المساكين ، ثم أخذوا شعره ودفنوه في الأرض ، وسماه إبراهيم وكان رسول الله قد سماه منذ ولادته ، فقد روى عن أنَس ابن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ولد لي الليلة غلام فسميته باسم أبي إبراهيم » .

وعن أنَس بن مالك قال : ولدت مارية ابراهيم فجاء جبريل عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : السلام عليك يا أبا إبراهيم ، فاطمأن رسول الله إلى ذلك .

وزاد الولد العزيز من حب رسول الله لمارية وتردده عليها ، ولكن الله لم يرد له الحياة ، فمات في شهره الثامن عشر على رواية ، وحزن عليه رسول الله حزناً عميقاً ، ولكنه صبر وشكر .

وكانت وفاة إبراهيم في بني مازن بن النجار حيث كان يرضع ، وتوفي لدى أم بردة ابنة المنذر من بني النجار .

وكانت وفاته يوم الثلاثاء لعشر ليال خلت من ربيع الأول سنة عشر من الهجرة .

عن جابر قال : أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بيد عبد الرحمن بن عوف ، فأتى النخل ، فإذا ابنه إبراهيم في حجر أمه وهو يجود بنفسه ، فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضعه في حجره ثم قال : « يا إبراهيم ، إنا لا نغني عنك من الله شيئاً » .

ثم ذرفت عيناه ، وقال : « يا إبراهيم ، لو لا أنه أمر حق ،

ووعد صدق ، وأن آخرنا سيلحق أولنا لحزنا عليك حزناً هو أشد من هذا ، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون ، تبكي العين ويحزن القلب ، ولا نقول ما يسخط الرب » .

وغسلته أم بردة ، وحمل من بيتها على سرير صغير ، وصلى عليه أبوه رسول الله بالبقيع وقال : « ندفنه عند فرطنا عثمان ابن مظعون » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إن له مرضعاً في الجنة تتم رضاعه » .

وقيل : إن الذي غسله هو الفضل بن عباس ، ونزل في قبره مع أسامة بن زيد ، ورسول الله جالس على شفير القبر ، ورشه بماء ، وأعلم عليه علامة .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو عاش إبراهيم لأعتقت أخواله ، ولوضعت الجزية عن كل قبطي » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا دخلتم مصر فاستوصوا بالقبط خيراً ، فإن لهم ذمة ورحماً » .

وهذا الحديث من علامات النبوة ، فقد تنبأ رسول الله بفتح مصر قبل أن يتم بسنوات .

وصادف يوم موت إبراهيم كسوف الشمس ، فظن قوم من المسلمين ان كسوفها لموت إبراهيم ابن رسول الله ، فلما بلغه نهض فيهم خطيباً ، وقال كلمته المشهورة : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله والصلاة » .

وكما كان حزن رسول الله بفقد ابنه شديداً فإن حزن أمه مارية كان شديداً أيضاً ، ولكنها صبرت واحتسبت .

وكانت في حياة سيدتنا مارية مشاكل ومتاعب ، وقد نزل بسببها بعض الأحكام من الله وبعض الآيات ، كما جرت في الإسلام أحكام وعظات وعبر .

فقد خلا رسول الله بجاريته مارية في بيت أم المؤمنين حفصة فلما خرج رأى حفصة قاعدة على باب بيتها وقالت له : يا رسول الله ، أفي بيتي وفي يومي ؟!

فقال رسول الله : «هي عليّ حرام ، فأمسكي عني» .

فقالت : لا أقبل دون أن تحلف لي .

فقال رسول الله : «والله ، لا أمسها أبداً» .

وفي كتاب «أسباب النزول[1]» للواحدي : «... عن ابن عباس عن عمر ، قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأم ولده مارية في بيت حفصة ، فوجدته حفصة معها ، فقالت : لِمَ تدخلها بيتي ؟ ما صنعت بي هذا من بين نسائك إلا من هواني عليك ، فقال لها : «لا تذكري هذا لعائشة ، هي عليّ حرام إن قربتها» . قالت حفصة : وكيف تحرم عليك وهي جاريتك ؟ فحلف لها لا يقربها ، وقال لها : «لا تذكريه لأحد» ، فذكرته لعائشة ، فأبى أن يدخل على نسائه شهراً ، واعتزلهن تسعاً وعشرين ليلة ، فأنزل الله تبارك وتعالى : «لِمَ تحرم ما أحل الله لك» .

---

١ أسباب النزول ، تأليف الإمام أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري ، مطبعة هندية سنة ١٣١٥ هـ ، انظر صفحة ٣٢٥ .

وفي «تفسير الطبري» تفسير سورة التحريم : «... عن ابن عباس ، قوله : «يا أيها النبي لمَ تحرم ما أحل الله لك» إلى قوله : «وهو العليم الخبير» ، قال : كانت حفصة وعائشة متحابتين ، وكانتا زوجتي النبي صلى الله عليه وسلم ، فذهبت حفصة إلى أبيها ، فتحدثت عنده ، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى جاريته فظلت معه في بيت حفصة ، وكان اليوم الذي يأتي فيه عائشة ، فرجعت حفصة فوجدتهما في بيتها ، فجعلت تنتظر خروجها ، وغارت غيرة شديدة ، فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم جاريته ، ودخلت حفصة ، فقالت : قد رأيت من كان عندك ، والله ، لقد سوءتني ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : «لأرضينك ، فإني مسر اليك سراً فاحفظيه» . قالت : ما هو ؟ قال : «إني أشهدك أن سُرّيّتي هذه عليّ حرام رضاً لك» وكانت حفصة وعائشة تظاهران على نساء النبي صلى الله عليه وسلم فانطلقت حفصة إلى عائشة فأسرت إليها : أن أبشري ان النبي صلى الله عليه وسلم قد حرم عليه فتاته ، فلما أخبرت بسر النبي صلى الله عليه وسلم أظهر الله عز وجل النبي صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله على رسوله لما تظاهرتا عليه : «يا أيها النبي لمَ تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك» إلى قوله: «وهو العليم الحكيم» .

والآيات التي نزلت في هذا الحادث من سورة التحريم ، قال الله تعالى : «يا أيها النبي لمَ تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك والله غفور رحيم • قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم • وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرّف

بعضه وأعرض عن بعض فلما نبّأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأني العليم الخبير • إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير • عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا » .

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب[1] رضي الله عنه : « اجتمع على رسول الله صلى الله عليه وسلم نساؤه في الغيرة فقلت لهن : عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن » قال : « فنزلت الآية » .

وقال عمر رضي الله عنه : « بلغني عن بعض أمهاتنا أمهات المؤمنين شدة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأذاهن إياه ، فاستقريتهن امرأة امرأة أعظها وأنهاها عن أذى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقول : إن أبيتنّ أبدله الله خيراً منكن ، حتى أتيت على زينب فقالت : يا بن الخطاب ، أما في رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت ، فأمسكت ، فأنزل الله : « عسى ربه إن طلقكنّ أن يبدله أزواجاً خيراً منكن » .

وفي هذه الآيات من الأحكام أحكام كثيرة بسطها العلماء والفقهاء في كتبهم ، وكانت سيدتنا أم إبراهيم السبب في ذلك .

ومن الأحكام النبوية فيما كانت أم إبراهيم سببه ما روي عن أنس رضي الله عنه قوله : كانت أم إبراهيم سرية للنبي

---

١ تفسير الطبري ، سورة التحريم .

صلى الله عليه وسلم في مشربتها، وكان قبطي يأوي اليهـا ، ويأتيها بالماء والحطب ، فقال الناس : علج يدخل على علجة ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرسل علياً بن أبي طالب ، فوجده على نخلة ، ونظر علي إلى النخلة فرأى القبطي مجبوباً ، فرجع دون أن يقتله إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال : يا رسول الله ، أرأيت إذا أمرت أحدنا بالأمر ثم رأى في غير ذلك أيراجعك ؟ قال : « نعم » . *

وأخبر علي رسول الله الخبر ، فقال رسول الله : « أصبت ، إن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب .

وهذه أحكام ظاهرة في هذه الحادثة .

ولما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتدت أم ابراهيم ثلاث حيَض .

وكان خليفة رسول الله ، أبو بكر ينفق على أم ابراهيم حتى انتقل إلى رحمة الله ، ومن بعده أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كان ينفق عليها أيضاً .

وفي خلافة عمر توفيت أم إبراهيم رحمهما الله وأسكنهما الجنة ، توفيت في المحرم سنة ست عشرة من الهجرة ، فرؤي عمر بن الخطاب يجمع الناس لشهود الصلاة عليها ، وصلى عمر عليها ، ودفنت في البقيع بالمدينة على ساكنها وآله وصحبه الصلاة والسلام .

الحبشية التي وصلت إلى قمة الإسلام

أم أيمن ، واسمها بركة ، وهي حبشية الأصل ، وشاركت في بناء صرح الإسلام ، وكانت بركة حقاً ، وكنيتها أم أيمن ، وقد اشتهرت بها ، وقد أكرمها الله بنعم لا تحصى ، فهي مولاة سيد الخلق وحاضنته صلى الله عليه وسلم .

ورثها من أبيه ، ولكنه أعتقها عند زواجه بسيدتنا خديجة بنت خويلد رضي الله عنها .

وتزوجت عبيد بن زيد من بني الحارث بن الخزرج فولدت له أيمن ، وأيمن ابنها صحابي ، استشهد يوم حنين وهو يجاهد مع رسول الله .

ومات عنها زوجها عبيد بن زيد فزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة مولى خديجة ، الذي وهبته لرسول الله فأعتقه وزوجه أم أيمن ، وكان تزويجه إياها بعد البعثة النبوية الشريفة ، ورزقت بأسامة حِبِّ رسول الله .

وكانت الرغبة من زيد . فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من سره أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج أم أيمن ، فأسرع زيد وتزوجها ، وكانت حياته معها حياة وفاق ، فكلاهما كان أثيراً عند رسول الله ، ذا حظوة لديه .

وهي صحابية جليلة ، ومهاجرة عظيمة ، سبقت إلى هجرة الحبشة ثم هجرة الحبشة . وقبل ذلك سبقت إلى الإسلام فكانت من السابقين إلى دين الله .

وهاجرت من مكة إلى المدينة حرسها الله ، ماشية ، وجهدت في السفر . ولكن الإيمان هون على نفسها بعد الشقة فطواه ، ووعثاء الرحلة ، ووعورة الطريق ، وانتهت إلى دار الهجرة سعيدة .

واشتركت في الجهاد مع رسول الله في أحُد ، ولم تولِّ الأدبار مع المنهزمين ، بل ثبتت ، وأدّت واجبها على خير وجه . فأسعفت من كان في حاجة إلى اسعاف ، داوت الجرحى والمصابين ، وسقت العطاش . وقوت العزائم .

واشتركت في غزوة خيبر ، ثم في غزوة حنين ، وكانت على مقربة من رسول الله . وكانت تشجع المسلمين ، وتدعو لهم بالنصر والثبات ، وكانت تقول بصوتها المسموع في الدعاء : ثبت الله أقدامكم ، تريد : ثبت الله أقدامكم ، ولما كان في لسانها بعض العسر كانت تنطق الثاء سيناً ، فلما سمعها رسول الله نصحها وقال : « أسكتي يا أم أيمن فإنك عسراء اللسان » .

ولعل نصح رسول الله لأمته أم أيمن بما نصح لها به ألا يهزأ بها سامع أو يضحك من قولها بسبب عسر لسانها فيؤذيها ، وما يؤذيها يؤذي رسول الله .

ومن عسر لسانها كان يتعذر عليها اخراج بعض الحروف من مخارجها ، فكانت تقول : سلام الله عليكم ، هكذا : سلام ألاّ عليكم ، فرخص لها رسول الله أن تقول : السلام عليكم .

وكان رسول الله عظيم الحب لها ، شديد الاحترام لها ، وكان يراها أمه صلى الله عليه وسلم بعد أمه آمنة ، ويقول في ندائه إياها : « يا أمّهْ » ، وإذا نظر اليها قال : « هذه بقية أهل بيتي » .

وكان من حبه لها وإدخال السرور عليها يمازحها ولا يقول إلا حقاً ، قالت له ذات مرة : احملني ، فأجابها متبسماً : « أحملك على ولد الناقة ! » فقالت : يا رسول الله ، إنه لا يطيقني ، فرد عليها : « لا أحملك إلا على ولد الناقة ؟ » فعجبت ، ولكنها سعدت بمفاكهة الرسول الكريم الرؤوف الرحيم حينما فهمت المعنى ، فالإبل كلها ولد الناقة .

وكان يحرص على دوام سرورها وتحقيق رغباتها ، فقد كانت لدى رسول الله نخلات مما يعطيه المسلمون ، وذلك قبل قريظة والنضير ، فأعطى منها أم أيمن ، ولما أكرمه الله بنخل قريظة والنضير رد إلى هؤلاء ما كانوا قد أعطوه .

ومن هؤلاء أهل سيدنا أنَس بن مالك ، وبعثوه إلى رسول الله يسترد منه ما كان أعطوه ، وكان رسول الله قد وهبه لأم أيمن ، فردوه اليهم ، فعلمت أم أيمن ، وأقبلت ، ووضعت ثوبها في عنق أنَس وجعلت تقول : كلا . والذي لا إله إلا هو لا يعطيكهن وقد أعطانيهن ، فيطيب رسول الله خاطرها ويقول لها : « لك كذا » وتقول أم أيمن : كلا ، والله . ورسول الله يقول : « لك كذا » قيل : إن رسول الله قال عشرة أمثال ما تحت يدها أو قريباً من عشرة .

وهذه الحادثة تدل على إمعان رسول الله في إرضاء أم أيمن ، وبلغ من رغبته في كسب رضاها أنه صلى الله عليه وسلم زاد

لها عشرة أمثال ما لديها مما يريد أن يأخذه منها ويرده إلى أصحابه .

ومات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو راض عنها كل الرضا ، وبكت أم أيمن بكاء شديداً ، فقيل لها : أتبكين ؟ فقالت : أي والله ، لقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيموت ، ولكنني إنما أبكي على الوحي إذ انقطع عنا من السماء .

وكانت في مقام العز والقدر من الصحابة وبخاصة أكابرهم ، فذات مرة قال أبو بكر لعمر : تعال نزر أم أيمن كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزورها ، فلما دخلا عليها بكت ، فقالا : ما يبكيك ، فما عند الله خير لرسوله ؟ فقالت : أبكي على الوحي الذي رفع عنا ، فهيجتهما على البكاء ، فأخذا يبكيان معها .

وروت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسة أحاديث .

وتوفيت أم أيمن رضي الله عنها بعد موت عمر في خلافة عثمان . وقال البخاري : توفيت أم أيمن بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم بخمسة أشهر .

وكان المسلمون وما يزالون يقدرون أم أيمن ، ويجلونها إجلالاً لرسول الله الذي كان يحبها ويكبرها ويطيعها ويقول لها : يا أمه .

وكان حفيدها الحجاج بن أيمن ابن أم أيمن قد دخل المسجد النبوي وصلى صلاة لم يتم ركوعه وسجوده ، فرآه عبد الله بن عمر وناداه وقال له وهو لا يعرفه : أي أخي ، أتحسب أنك

قد صليت ؟ إنك لم تصل فعد لصلاتك .

فقيل لابن عمر : هذا الحجاج بن أيمن ابن أم أيمن ، فقال ابن عمر : لو رأى هذا رسول الله لأحبه .

وخاصم ابنُ أبي الفرات الحسنَ بن زيد بن أسامة وقال له : يا بن بركة ، يريد أم أيمن . فقال الحسن : اشهدوا ، ورفع أمره إلى قاضي المدينة أبي بكر بن محمد بن عمرو ابن حزم – وكان ذلك في عهد الأمويّين – وقصّ عليه قصته .

فأحضر ابن حزم ابن أبي الفرات وقال له : ما أردت إلى قولك : يا بن بركة ؟

فأجابه ابن أبي الفرات – وهو مولى أسامة بن زيد – ؟ سميتها باسمها .

قال أبو بكر بن حزم : إنما أردت بهذا التصغير بها وحالها من الإسلام حالها ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لها : يا أمه ، ويا أم أيمن ، لا أقالني الله إن أقلتك ، فضربه سبعين سوطاً .

وهكذا كان مقام أم أيمن عند المسلمين ، ويكفي أن ابن حزم قاضي المدينة لم يقبل تسميتها ببركة تصغيراً لحفيدها ، وجلد ابن أبي الفرات .

وكانت أم أيمن بركة كاسمها ، طيبة فاضلة ، وحسبها شرفاً ورفعة ذكر ومقام قدر رسول الله صلى الله عليه وسلم إياها قدراً كبيراً . وعرف لها المسلمون خاصتهم وعامتهم حالها من الإسلام ، وحب رسول الله إياها وقدره لها فكانوا يجلونها أعظم الإجلال .

ذَاتُ النِطَاقَيْنْ

- ١ -

حافظة السر العظيم

ندر في النساء مثل « ذات النطاقين » أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما ، فقد جمع لها الله المجد من أطرافه، مجد الدنيا والدين ، فكانت من أعظم نساء المؤمنين ، وما يذكر تاريخ الرسول صلى الله عليه وسلم إلا وتذكر أسماء معه ، لأنها شاركت في « التنظيم السري » للإسلام . وكانت الوحيدة بين المسلمين التي اطلعت على وقت الهجرة ومخبئه ، وكانت هي التي تتولى زيارته مع صاحبه في غار ثور تتردد عليهما بالطعام والشراب .

وما لأحد من نساء المسلمين هذا الفضل . ولا يكفي لسيرة أسماء وشخصيتها وحياتها وأعمالها ومزاياها مقالة أو بضع مقالات في كتاب ، فهي بين الصحابيات « المرأة » الوحيدة التي يمكن للباحث أن يجد في تاريخها « البنت » البارة و « الزوجة » الصالحة و « الأم » المثالية التي تتفرد بصفات ومزايا قل أن تجتمع في امرأة .

أسماء ، ابنة أبي بكر الصديق ، حبيب رسول الله ، وثاني

اثنين في الغار ، وأول مسلم ضحى بماله ونفسه في سبيل الله ، والصديق غني عن التعريف ، وأكبر من كل ما كتب عنه ويكتب ، فهي تنسب لخير أب مسلم بعد محمد صلوات الله وسلامه عليه .

وأمها من سيدات مجتمعها الراقيات . وهي قتيلة بنت عبد العزى . طلقها زوجها أبو بكر بعد مولد أسماء فلحقت بأهلها وبقيت أسماء تحت كنف أبيها .

وكانت أسماء من أوائل من دخلوا في الإسلام . وكان ترتيبها السابع عشر بين المسلمين الذين آمنوا بالله وبرسوله وصدقوهما، وكان ايمانها ايمان عقل وقلب وضمير .

ولما استقر رأي رسول الله على الهجرة وحدد موعدها وخرج مع صفيه أبي بكر إلى غار ثور يختفيان فيه حتى يقل طلبهما ، كانت أسماء هي وحدها التي تعلم بخطة الرسول صلى الله عليه وسلم وخطة أبي بكر مع ثلاثة آخرين هم أخوها عبد الله بن أبي بكر وعامر بن فهيرة وعبد الله بن اريقط .

ومع ان الحكماء يقولون : لا سر عند المرأة . فان خطة رسول الله وهربه كانا أخطر سر في الإسلام . والأمين عليه امرأة ، فلم يفتضح هذا السر الخطير ، وبقي مكتوماً مصوناً . ولكي نعرف عظمة أسماء لنفترض انها فضحت السر ، فما الذي كان يترتب على ذلك ، لو أن السر افتضح لغرقت الإنسانية إلى يوم القيامة في وثنية بشعة ، ولكن اصرارها على كتمان السر برغم ما تعرضت له وبما بذلت من جهد لئلا يتتبعها المترصدون والعيون الخفية مشى الإسلام في خط سيره الذي وضعه محمد صلى الله عليه وسلم .

وإن قيام الإسلام يدل على أن الرجل ليس وحده الذي بنى صرحه ، بل شاركت المرأة بنفسها ومالها وجاهها وبكل ما زودها الله به من مواهب وما منحها من مكاسب ، فخديجة أم المؤمنين رعت رسول الإسلام بمالها وجاهها وقوتها ، ووفرت له الحياة الهادئة حتى يتفرغ لعبادته ، ثم شاركت في الدعوة عندما نبئ محمد ثم بلغ بالرسالة . وكانت له خير صديق وعون . وكان رسول الله يذكرها حتى انتقل إلى الرفيق الاعلى ذكراً رائعاً عظيماً ، ويصفها أجمل ما توصف به امرأة أو يوصف به أرفع الأمثلة الإنسانية .

قالت عائشة رضي الله عنها : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها ، فذكرها يوماً من الأيام فأدركتني الغيرة فقلت : هل كانت إلا عجوزاً فقد أبدلك الله خيراً منها ! فغضب حتى اهتز مقدم شعره من الغضب ثم قال : « لا ، والله ما أبدلني الله خيراً منها ، آمنت بي إذ كفر الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، وواستني في مالها إذ حرمني الناس ، ورزقني الله منها أولاداً إد حرمني النساء » . قالت عائشة : فقلت في نفسي لا اذكرها بسيئة أبداً .

فالمرأة اشتركت منذ أول يوم في الإسلام في تأييده ، وكانت خديجة تؤيد رسول الله وتخفف عنه وتثبته وتشاركه احتمال تبعات الدين الجديد .

ومشاركة المرأة في بناء صرح الإسلام كانت مشاركة عامة قوية فعالة ، شاركت بالنفس والمال ، فاشترك في الهجرة إلى الحبشة المرأة مع الرجل ، وجاهدت في سبيل الله حق الجهاد .

وها هي ذي أسماء بنت أبي بكر تشترك في التنظيم السري للحركة الإسلامية ، وتكون ثالث ثلاثة في مخطط الهجــرة والاختفاء ، محمد وابو بكر وأسماء ولا أحد سواهم يعلم بهذا المخطط السري الخطير ، ولا أحد غير أسماء يعلم بمخبأ الصاحبين غير ثلاثة رجال .

وكانت أسماء بحكم اشتراكها في هذا المخطط هي وحدها التي تعرف مكانهما ، فكانت تروح وتغدو اليهما في حرص شديد حتى لا تقتفي آثارها قريش التي كانت تبحث عن محمد وصاحبه لتقتلهما .

وسميت ذات النطاقين تكريماً وتبجيلاً لها ، لأنها شقت نطاقها نصفين ، ربطت بأحدهما سفرة رسول الله وبالآخر قربته ، وان كان بين المسلمين من عيرها بهذا الشرف كأهل الشام وكالحجاج بن يوسف الثقفي عندما قتل ابنها عبد الله ، فردت عليه أبلغ رد ، وهي في غير حاجة إلى الرد . لأن هذا اللقب وسام الإسلام يزين تاريخها وصدرها مدى الدهر ، انه لقب الشرف ووسام المجد ، وقد أفضل الرسول صلى الله عليه وسلم عليها بهذا التكريم العظيم .

ويصحب هجرة الرسول كثير من مزايا أسماء أهمها ان أباها أخذ معه كل ما لديه من مال ، ولم تجزع ، بل كانت سعيدة بذلك كل السعادة حتى ان « ابا قحافة » والد أبي بكر قــال لأسماء بعد سفره : والله اني لأراه قد فجعكم بماله كما فجعكم بنفسه ، فقالت : كلا ، يا أبت ، انه قد ترك لنــا خيراً كثيراً .

وأخذت أسماء أحجاراً ووضعتها في كوة كان أبو بكر يضع

فيها ماله وغطتها بثوب ، ثم أخذت بيد جدها ووضعتها على الكوة وقالت له : ها هو ذا المال الذي تركه لنا .

فقال : لا بأس ، إذا كان قد ترك لكم هذا فقد أحسن ، وفي هذا بلاغ لكم .

وأبو بكر لم يترك لهم شيئاً ، ولكنها أرادت أن تسكن روع جدها .

وهذه حادثة يسيرة ، ولكن لها مغازي تدل على خلائق أسماء ، فهي لم تجزع لأن أباها صحب معه كل ماله ، إذ أدركت انه مسافر بصحبته رسول الله ، وهما ماضيان إلى بلد جديد ، فهما مسافران ، والسفر ذو تكاليف ، أما هم فمقيمون في بلدهم ، وفي وسعهم تدبير شؤونهم وتأمين مطالب حياتهم .

وغنى نفس أسماء مع الفاقة التي خلفها والدها يشبته تصرفها مع جدها وايهامها اياه حتى يطمئن إلى مستقبل الاسرة وحياتها ، وكانت من أعظم خلائقها في هذه الازمة المالية أمنها وطمأنينتها ورضاها بالواقع الاليم في ظاهره والسعيد في حقيقته ، لأن أسماء رضيت وقنعت بتصرف أبيها ، فلم تجزع ولم تطمع .

واشتراك أسماء في عملية الاختفاء بحيث كانت ثالث ثلاثة يدل على مكانتها من الرسول وصاحبه واطمئنانهما إلى أسماء وكتمانها سرهما ، وهو يدل على مشاركة المرأة في بناء صرح الإسلام منذ أول يوم من أيامه حتى استقام أمره وأكمل الله دينه على المؤمنين .

شاركت خديجة منذ أول يوم ، وها هي ذي أسماء تشارك في عملية الهجرة والاختفاء والهرب من وجه كفار قريش ،

وتؤدي دورها على أكمل ما يكون اداء دور خطير كهذا الذي أدته في اتقان معجب ، ولم تبال بما ينجم عنه إذا افتضح أمرها ولكن الله عز وجل أعانها على أداء هذا الدور الخطير .

والإسلام دين الرجل والمرأة على السواء ، وهما قاما معاً باحتمال نشر الدعوة وتثبيت قواعد الدين الجديد ، وفي كل مرحلة من مراحله اشتركت فيها كالرجل .

حتى العذاب الذي لا يطاق ، والذي نزل بالمسلمين من قبل كفار قريش لم يتفرد الرجل به دون المرأة ، بل كانت هي شريكته فيه ، فسمية – رضي الله عنها – أم عمار بن ياسر عذبت مع زوجها وابنها حتى ماتت في العذاب وهي تحتمله راضية سعيدة ، وكانت المثل الأعلى في التضحية بالنفس والنفيس ، والصبر على ما لا يطاق من العذاب والقهر والثبات على المبدأ .

وأسماء بنت أبي بكر من أعظم النساء المسلمات المؤمنات ، وممن شاركن في صنع تاريخ الإنسانية وبناء مجتمع الإسلام الامثل ، فهي حرية ان نتدبر سيرتها وتاريخها حتى يكون لنا في حاضرنا ومستقبلنا ما يدفعنا إلى التأسي بها وحتى يكون لنا بعض ما كان لهذه المرأة العظيمة المجاهدة .

- ٢ -

الابنة البارة

وتاريخ أسماء حافل ثر ، بل هي صالحة لأن تكون المرأة النموذج ، المرأة عضواً في المجتمع ، والمرأة بنتاً ، والمرأة زوجاً ، والمرأة أماً ، والمرأة أختاً ، والمرأة أنثى .

وفي الكلمة السابقة إشارة إلى المرأة عضواً في المجتمع ، ومشاركة في تحمل تبعات الدعوة وتضحياتها في أول أمرها .

ونقف هذا الكلمة على سيدتنا أسماء بنت أبي بكر الصديق لنقول كلمتنا فيها بنتاً .

ولدت من أبوين كريمين ، وحسبها فخراً وعزة انها ابنة الصديق ، والصديق أكبر مسلم في تاريخ الأسلام منذ بدأ حتى اليوم ، ولم يأت من يستطيع ان يقف بجانبه ويساويه عظمة وسموقاً وخلقاً ، فقد كان أشبه الصحابة برسول الله وألصقهم به وأصدقهم له وأعظمهم تصديقاً له حتى فيما لا يقبله العقل ، لأنه أكبر من مستوى العقل .

يكفي أن يكون أبو بكر رضي الله عنه أباها لتكتسب منه صفاته وترث منه خلائقه التي ذهبت بالفضل والعظم .

أما أمها فعربية من بيت شامخ أيضاً ، أمهـــا قتيلة بنت عبد العزى .

وكانت من خير البنات براً بوالديها ، وبخاصة والدها الذي أحبته وأعجبت به ورضيت من أجل الإسلام أن يأخذ والدها كل ماله معه وهو مهاجر مع رسول الله ، ولم تسخط عليه أو تعترض ، بل أوهمت جدها أن أباها ترك لهم مالاً .

وكانت هي المسؤولة عن المنزل . ولو كان غيرها مكانها لطلبت إلى أبيها أن يترك شيئاً . ولكنها شجعته على أن يأخذ كل ماله ، لأنها أدركت حاجته اليه أكثر من حاجة أسرته ومن أفرادها شيخ ضرير وبنات وأبناء صغار .

وكان قول أبيها عندها مقدساً . اشارته أمر مطاع ، وقوله الحق . ولا تراجعه لأنها تعلم انه على الحق والصواب .

شكت اليه زوجها الزبير بن العوام وشدته ، فنصحها وطلب اليها أن تصبر . وقال لها : يا بنية ، اصبري ، فان المرأة إذا كان لها زوج صالح ثم مات عنها فلم تتزوج بعده جمع الله بينهما في الجنة .

وصبرت لأن أباها نصحها بالصبر ، ولم تناقشه ، بل رضيت بنصحه وآثرت أن تكون شريكته في الجنة . .

وهي وإن كانت — رضي الله عنها — تعتز بأبيها وشرفه وسبقه إلى الإسلام فقد كانت شديدة التواضع والبعد عن الكبرياء ، فما أثر عنها انها نهرت سائلاً أو ردت قاصداً .

وهي أشبه أولاد الصديق به . فقد كانت ذات قلب إنساني كبير ، وكانت مسلمة مؤمنة قانتة ، هينة لينة ، ولكنها كانت إلى جانب اللين والسماحة شديدة في الله ، مثل أبيها ، لا تبالي في سبيل الحق أحداً ، بل تسعد بالتضحية ولو كانت بابنها المحبوب .

ومع ما عرفت به من بر الوالدين ما كان برها يدفعها إلى ايثارهما على الدين ، فقد كانت أمها مطلقة ، طلقها أبو بكر في الجاهلية ، فجاءت تزورها بالمدينة المنورة بعد هجرتها ، وصحبت معها طحناً وقرظاً وهدايا كثيرة ، ولكنها أبت أن تدخلها بيتها وان تقبل هديتها ، وبعثت إلى أختها عائشة لتسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنها خافت أن تقبل الهدية وتستقبل أمها في منزلها وهي غير مسلمة ، حتى إذا أمرها الرسول بقبول الهدية ودخول أمها في بيتها استقبلتها هي وهديتها .

وهذا يدل على ايمانها الصادق ، فهي مستعدة أن تخاصم أمها في سبيل الله وتؤثره عليها مع برها العظيم بها .

وما كانت أسماء إلا بنتاً بارة بأبويها ، واحتملت في سبيل رضاهما وبخاصة في سبيل رضا أبيها ما لا يحتمل ، فقد رضيت بالفاقة والحاجة ، ورضيت بالعذاب والاهانة .

جاء أبو جهل إلى منزل أبي بكر في نفر من قريش وطرق بابه فخرجت أسماء ، وسألها عن أبيها ، فلما قالت له : لا أدري أين هو ، ضربها على وجهها حتى سقط القرط من أذنها ، ولم تبال بجمهرة كفار قريش ، ولم تفصح عن مكان أبيها الذي اختبأ فيه ، ثم غادره دون أن يعلم أحد أين مضى مع صاحبه

عليه صلوات الله وسلامه .

وعاشت أسماء في كنف أبيها عيشة خفض ويسر ونعمة ، ولكنها كانت ابنة صالحة للصديق الأكبر أبي بكر ، وتأثرت بأبيها كثيراً ، فكانت متدينة زاهدة سخية كريمة مثل أبيها .

والمنزل الذي ولدت فيه ودرجت ونشأت وكبرت كان منزلاً عربياً خالصاً ، فكانت عربية صافية النسب ، ثم دخل الإسلام هذا المنزل النبيل فأضاء أرجاءه ، فإذا أسماء في السابقين إلى الإسلام ، وكان لها في أبيها أسوة ، فأبوها أول رجل صدق برسول الله حق التصديق ، وأول رجل دخل الإسلام ، وإذا أسماء تدخل في دين الله حتى كان ترتيبها السابع عشر أو الثامن عشر على أرجح الأقوال .

بل هي أول امرأة خارج منزل رسول الله أسلمت ، لم يسبقها غير خديجة بنت خويلد رضي الله عنها .

ولا شك ان أباها أسلم وعرض عليها أن تسلم ، ويجوز أن يكون الرسول هو الذي عرض عليها الإسلام ، لأنه صلى الله عليه وسلم كان يتردد على دار أبي بكر كثيراً . وليلة خروجه من مكة إلى غار ثور كان في دار أبي بكر ، وخرج من خوخة خلفية بها .

وأياً كان الأمر فان مما لا شك فيه أن أسماء كانت ثاني امرأة مسلمة في العالم ، ولأبيها الفضل – بعد الله ورسوله – في إسلامها ، فكانت من أعضاء حركة التحرر الإسلامية البارزين ، ولم تنس لأبيها هذا الفضل الذي نقلها من الشرك إلى الإسلام

يضاف إلى ما لا يحصى من فضل الأبوة التي كانت تعترف بها في كل أيام حياتها .

وكانت أسماء نعم البنت الصالحة من أب صالح لزوج صالح مبشرين بالجنة .

- ٣ -

الزوج المثالية

وُلِدَتْ أسماء بنت أبي بكر الصديق في بيت كريم ذي ثراء وسؤدد ، وُلِدَت وفي فمها ملعقة من ذهب ، ونشأت في رعاية والدين عظيمين ، وكان أبوها من أعظم الناس بمكة المكرمة — حرسها الله — شرفاً وغنى ومجداً ، وكان بيت أبي بكر بيت ترف وسخاء وبذل ، وكانت أبوابه مفتوحة للضيوف والزوار من كل طبقة . وكان المحتاجون يقصدونه مسترفدين .

في هذا البيت الغني السعيد ولدت أسماء ونشأت ، فكانت من عذارى مكة المنعمات المدللات ذوات الحجى والفضل والخلق الجميل .

وعندما بلغت زوّجها أبوها ، بعد إسلامها ، رجلاً من مشاهير العرب والمسلمين : الزبير بن العوام ، أحد أكابر أبطال الإسلام ، ومن أعظم شجعان العرب وفرسانهم .

ولم يكن زوجها من الموسرين . قالت أسماء : « تزوجني الزبير وما له في الأرض مال ولا مملوك ولا شيء غير فرسه فكنت أعلف فرسه ، وأكفيه مؤونته ، وأسوسه وأدق النوى لناضحه وكنت أنقل النوى من أرض الزبير .

وهذه حياة غاية في الشظف ، فبعد أن كانت في بيت أبيها غنية مترفة مخدومة أصبحت خادماً لا تؤدي شؤون المنزل الزوجي فحسب ، بل تسوس فرسه . وتعلفه وتدق النوى بعد جمعه لناضح إلى غير ذلك من أعمال الخدم .

ولم تكلف الزبير أو تحتقره أو تخاصمه ، بل كانت راضية محتسبة ترجو وجه الله . ويزيد فضلها صبرها على الزبير الشديد الذي كان يضربها أحياناً بطنب الخيمة وهي مَنْ هي في ترفها السابق ومكانة أبيها من الرسول ومن المسلمين جميعاً بما فيهم الزبير .

وقد شكت ذات مرة شدة الزبير إلى أبيها فطيب خاطرها ونصحها بالصبر ذاكراً زوجها بما هو أهله من صفات الخير حتى تتمسك به ولا تشكو منه .

وان الواحدة منا تعيش في كنف زوج سهل لين العريكة ، ومنزل حسن ، وعيشة راضية . ومع هذا تبطرها النعمـــة . وإذا غلط الزوج غضبت عليه ، وينضم اليها أهلها يخاصمون الزوج .

وما قيمة أحدنا بالنسبة لأسماء المجاهدة الصابرة السابقة إلى الإسلام ، المبشرة بالجنة ؟

لا شيء ، ومع هذا تأخذ الواحدة منا العزة بالاثم ، ولو أن

إحدانا كانت تصنع ما تصنع أسماء من سوس الفرس وعلفه ودق النوى لاستكبرت عليه وعبرته ، فكيف إذا اشتد عليها اشتداد الزبير ؟ إنها كانت تخرج من الأرض أثقالها وتزلزل الدنيا زلزالاً شديداً .

بل هي من غير هذه الشدة تتنكر للزوج إذا ضاقت ذات يده بنفقاتها ، فإذا أضيف إلى هذا الضيق شيء من شدة الزوج وقعت الواقعة .

إن إحدانا من آلاف الزوجات لا تستطيع أن تزعم أنها كانت في بيت أبيها أكثر ترفاً وسعة من أسماء ، ولا تستطيع أن تزعم أن في الازواج مَنْ هو في شدة الزبير رضي الله عنه ، حتى انه قيل إنه كان يضرب أسماء بعمود الخيمة فتصبر .

ومع هذا لا نقتدي أسماء ولا نتخلق بأخلاقها .

وفي بلداننا من يشترط أهلوها في تزويجها ألا تخدم ولا تغسل كأن المرأة دمية لألهية الرجل ، وليست شريكة حياته يتقاسمان رخاءها وشدتها .

ولم تتفرد أسماء بهذه الأخلاق ، بل كانت فاطمة بنت رسول الله مريضة لا تجد اللحم أو مرقه ، وأمهات المؤمنين لا يجدن الطعام ، وكلهن صبرن لأن المعدة لم تكن شغل المرأة الشاغل عن كل شيء في الحياة .

وكانت أسماء الزوج المثالية ، لم تذكر ماضيها فتبرم بحاضرها المؤلم الحاف ، ولم تذكر بيت أبيها ولا سعته وغناه فكانت تؤدي أعمال المنزل الشاقة التي لا تؤديها إحدانا ، ومع هذا

لا نشكر ولا نقدر الزوج حق القدر .

لتكن الزوجة كأسماء ، وليكن أولياء المرأة كأبي بكر ، بل ليكن لنا في رسول الله اسوة . شكت اليه ابنته الزهراء فاطمة أن الرحى أيبست يدها وأضرت بصحتها فلم يعطها وآثر عليها أهل الصفة .

وعلى أي حال كانت أسماء زوجاً مثالية في طاعة زوجها والصبر على شدته والرضا بما قسم الله لها في منزله الخشن من شظف العيش والعمل المضني .

وقد أعجبتني كلمة للأستاذ عباس محمود العقاد في كتابه « عبقرية الصدّيق » ، في الفصل الذي عنوانه « الصدّيق في بيته » :

« أما أسماء — ذات النطاقين — فما حمد الناس فضيلة للمرأة بنتاً وزوجاً ووالدة إلا كانت فيها على أجملها وأسماها وأحقها بالتمجيد والاكبار » .

وهذا حق ، فقد كانت محامد أسماء وفضائلها وهي بنت كفاء مزاياها وهي زوج مطيعة وفية صابرة ، وكل مزايا أسماء بنتاً وزوجاً وأماً مزايا عربية وإنسانية وإسلامية ، ولا تخطئها العين سواء كانت قريبة منها أم بعيدة عنها .

ونحن في عصرنا هذا أشد ما نكون حاجة إلى التأسي بأسماء بنت أبي بكر الصديق ، التأسي بها بنتاً ، والاقتداء بها زوجاً ، واتخاذها مثلاً رفيعاً في أمومتها العاقلة الرشيدة .

وان تاريخ العرب ليس وحده الذي يضيء بسيرة أسماء ، وليس تاريخ الإسلام وحده الذي يشرق في سجلاته العظيمة

تاريخ أسماء ، بل تاريخ الإنسانية يشرف بهذه السيدة الممتازة في مبدئها وعقيدتها وخلائقها ومزاياها .

وأكثر من كل هذا ان تاريخ المرأة يزهى بأسماء أن يكون فيه تاريخها المشرق وسيرتها الناضة الناصعة العطرة لتكون نبراساً مضيئاً ينبثق من امرأة اجتمع في شخصيتها الفذة خير الخلائق الفاضلة والصفات الكريمة المحمودة .

رضي الله عنها أحسن الرضا .

— ٤ —

الأم العظيمة

نعم ، هي أمّ لا كالأمهات ، وتوصف بالعظمة لأنها اتصفت بها منذ كانت أماً ، لم تهن في سبيل الأمومة ولم تضعف ، بل كان موقفها أعظم المواقف التي تتغلب فيها الشجاعة والمروءة والإيمان على ضعف الأمومة في مثل هذه المواقف الشديدة .

تزوجت الزبير بن العوام بمكة المكرمة وحملت منه . ثم هاجرت إلى المدينة المنورة . وفي قباء وضعت ابنها البكر عبد الله ، وذهبت به عقب مولده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففرح به كثيراً كما فرح المسلمون ، لأنه أول مولود في الإسلام بعد الهجرة .

أتت به النبي ووضعته في حجره ، فدعا بثمرة فمضغها ثم تفل في فم الوليد ، فكان أول ما دخل جوفه ريق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم مسحه ، وسمّاه عبد الله .

وكان لأسماء أولاد أخر ، احتفت بهم وربتهم تربية إسلامية عالية . ومما يؤثر عنها أنها كانت شاعرة وكانت ترقص ابنها عبد الله بقولها :

أبيض كالسيف الحسام الابريق
بين الحواري وبين الصديق
ظني به ورب ظن تحقيق
والله أهل الفضل وأهل التوفيق

وكل أولادها كرام مثلها . فقد رأوا أمهم وهي تسخو بما تحت يدها تغيث به الملهوفين وتعين به المحتاجين وتقول لهم : أنفقوا وتصدّقوا ، ولا تنتظروا الفضل ، فإنكم إن انتظرتم الفضل لم تفضلوا شيئاً . وان تصدقتم لم تجدوا فقده .

فنشأ أولادها وربوا بين يدي أم هذه خلائقها : الانفاق والسخاء والكرم والاريحية والتقوى والصلاح فنشأوا كراماً مثلها . وأثرت فيهم بشخصيتها تأثيراً عظيماً ، وكانوا مثلاً رائعاً في الناس شجاعة وفضلاً وكرماً ونبلاً .

ومع أنها كانت من المعمرين إلا انها احتفظت بصحة جسمها ونشاط عقلها . بلغت المئة فلم تسقط لها سن ، وفي هذه السن العالية التي يضعف فيها بنيان الإنسان لم تفقد الشجاعة والقوة وتحكيم العقل والضمير والعقيدة .

جاء ابنها عبد الله اليها وكانت الحرب شديدة بينه وبين جيوش بني أمية ، وكانت أسماء فاقدة بصرها وعليلة ، فسألها عن حالها فشكت له بعض ما تجد ، فقال لها : ان في الموت راحة ، فردت عليه : لعلك تمنيته لي ، ما أحب أن أموت

حتى يأتي علي أحد طرفيك ، اما قتلت فأحتسبك لوجه الله ، وإما ظفرت بعدوك فتقر عيني !..

ولم يتمن لها ابنها الموت إلا ليريحها من القلق عليه ، وليتفرغ لأعدائه ، لأنه كان شديد البر بها حتى ذكرته به في آخر مقابلة له معها حيث دعت له بقولها : « اللهم ارحم بره بأمه » وكان حريصاً على راحتها وهي في هذه السن التي هي أحوج ما تكون إلى الراحة .

وجاءها آخر مرة يستشيرها فيما يفعل ، وذكر لها خذلان الناس إياه ، وموت أصحابه ، ورضا أعدائه أن يعطوه الدنيا والجاه والمال ، فلم تفكر لأن أمامها طريقاً لا تريد غيره ، طريق الشرف فقالت له :

« يا بني أنت – والله – أعلم بنفسك . ان كنت تعلم انك على حق واليه تدعو فامض له ، فقد قتل عليه أصحابك ، ولا تمكن من رقبتك يتلعب بها صبيان بني أمية ، وان كنت تريد الدنيا فبئس العبد أنت ! أهلكت نفسك وأهلكت مَن معك ، وان قلت : كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت فهذا ليس فعل الاحرار ولا أهل الدين ، وكم خلودك في الدنيا ؟ القتل أحسن » !..

فدنا ابنها منها وقبّل رأسها وقال : هذا والله رأيي ، والذي قمت به داعياً إلى يومي هذا . ما ركنت إلى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها ، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله أن يستحل حرمه . ولكنني أحببت أن أعلم رأيك فزدتني بصيرة مع بصيرتي ، فانظري يا أماه ، اني مقتول من يومي هذا فلا يشتد حزنك ، وسلمي الأمر لله ، فان ابنك لم يتعمد

اتيان منكر ولا عملاً بفاحشة ، ولم يجر في حكم الله ، ولم يغدر في أمان ، ولم ينو ظلم مسلم ولا معاهد ، ولم يبلغني ظلم عن عمالي فرضيت به ، بل أنكرته ، ولم يكن شيء آثر عندي من رضا ربي . اللهم إني لا أقول هذا تزكية لنفسي . اللهم أنت أعلم بي ، ولكنني أقوله تعزية لأمّي لتسلو عني .

ثم جاءها مودّعاً وقال لها : اني لأعلم ان هذا آخر يوم من الدنيا يمر بي . واعلمي يا أماه اني ان قتلت فإنما أنا لحم لا يضرني ما يصنع بي .

قالت : صدقت يا بني . أتمم عليك بصيرتك ، وادن مني أودّعك .

ودنا منها ، وقبّلها وعانقها ، ثم خرج إلى الجهاد . فدفع أهل الشام دفعة قوية منكرة ، وقتل منهم كثيراً ، ثم انكشف هو وأصحابه . ثم كر كرة ثانية وقاتل قتالاً شديداً لم ير مثله حتى استشهد ، وأخذه الحجاج بن يوسف أجير بني أمية وصلبه تنكيلاً به وبأمه وأهله وبأهل مكة .

وعلمت أسماء ببطولة ابنها واستشهاده فحمدت الله على انه مات دون مبدئه وعقيدته . ومرت وهي مكفوفة مع دليلها بجثة ابنها المصلوبة وقالت : أما آن لهذا الفارس أن يترجل ! فلم يسمح الحجاج بدفنها ، فدعت الله ألا تموت حتى تكرم هذه الجثة الطاهرة .

واستجاب الله دعاها فلم تمت إلا بعد أن دفنت الجثة .

وان موقفها من ابنها حين جاءها مستشيراً موقف يحطم الجبابرة الأقوياء ، فالعدو كثير العدد والعدة وأنصاره قتلوا ،

ولم يبق معه إلا قليل من الأنصار . والناس قد خذلوه . ولكنها أسماء ابنة أبي بكر ، أسماء زوج الزبير . أسماء وحسب ، لم تهن عزيمتها ولم تضعف . بل وقفت موقفاً شديد الصلابة لئلا يضعف ابنها الشجاع .

ولو علمت أن ابنها يقاتل عن دنيا لاحتقرته . لأنها قالت له : ان كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت . ولكنها موقنة انه يدافع عن حرم الله ويجاهد في سبيل الله فثبتت قلبه على الحق وزادته ايماناً بما يجب أن يستمر فيه ولو كان وراءه الموت الشريف .

ولم تفقد أسماء المسنة قوة القلب ورباطة الجأش وهي تفتقد ابنها ونصيرها وأحب الناس اليها . بل كانت كالعهد بها آية رائعة في الشجاعة التي تقترن بالرشد والحق ، تتجلى في مناقشتها للحجاج سيد الموقف وجبار بني أمية العائث في حرم الله ظلماً وطغياناً وقتلاً .

قالت أسماء : أما آن لهذا الفارس أن يترجل .. فأجابها الحجاج في قحة : المنافق . يقصد ابنها الشهيد ، فلم تضعف ولم تخف . بل ردت عليه رداً شديداً كله حق وايمان . قالت له : والله ما كان منافقاً . والله ما كان منافقاً . لقد كذبت ! والله ، كان صواماً قواماً براً بالوالدين . ولكن ، والله أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم انه سيخرج من ثقيف كذابان الآخر منهما شر من الأول ، وهو مبير .

وقال لها الحجاج : كيف رأيتني صنعت بابنك ؟ فأجابته في ايمان وثقة : أفسدت عليه دنياه وأفسد عليك آخرتك !..
واتهمها الحجاج بالخرف فردت عليه في حزم ، وقذفته بأنه

« المبير » الذي نبأ الرسول به أمته .

وان المرء ليعجب من ايمان أسماء وشجاعتها في هذا الموقف ، تمضي راجية ولكنها توثر الحق على الرجاء ، ولم تتخاذل أمام جبروت الحجاج المبير ، بل استبدلت بالرجاء الحق وجبهته به حتى يرعوي عن غيه إذا كان لمبير أن يرعوي .

وان تاريخ الشجاعة والبطولة ليفخر بأسماء في موقفها هذا الذي يندر أن يقفه صناديد شجعان مغاوير ، هي بين يديّ جبار مبير يملك الدنيا والقوة والحقد والظلم والعنف والنصر المبين لا تباليه في سبيل الحق .

وقد صدق العقاد رحمه الله عندما قال : « هذه هي الأم التي يشرف بها الابناء والآباء ، وتشرف بها سلالة آدم وحواء هذه أسماء بنت أبي بكر » .

- ٥ -

المبشرة بالجنة

كانت أول امرأة في الإسلام بعد خديجة بنت خويلد ، وكانت من المهاجرين السابقين ، وأكرمها الله بأن وضعت أول مولود في الإسلام بعد الهجرة ، وكان ابنها عبد الله الطفل الوحيد في البشرية الذي دخل ريق رسول الله صلى الله عليه وسلم جوفه قبل أي طعام ، وهي — بعد — من أعظم النساء في تاريخ الإسلام .

أسلمت لله وجهها وآمنت به حق الايمان وماتت عليه ، وبلغت في سجاياها ومزاياها وفضائلها ما لم تظفر به في تاريخ النساء إلا قلائل هي في الطليعة الأولى منهن .

كانت من بين أعضاء المنظمة الإسلامية الأولى ، وكانت في الجهاز السري التابع لهذه المنظمة الإنسانية العظيمة ، حتى ان الرسول صلى الله عليه وسلم وأبو بكر اختاراها وحدها لتتردد عليهما في مخبئهما بغار ثور بأسفل مكة شرفها الله ،

تتردد عليهما كل مساء بطعامهما وشرابهما قاطعة عديداً من الأميال ، تصعد في الجبل حتى تنتهي إلى المخبأ ، لا تبالي قريشاً ، ولا يهمها إلا أن تؤدي مهمتها على خير وجه ، وقد أدته أحسن أداء ، فلم يفتضح أمرها الذي لو افتضح لتغير وجه التاريخ وصار بشعاً مخيفاً . ولكن الله أراد للإنسانية الخير فلم ينكشف أمرها ولم تدركها عين من آلاف الأعين التي تبثها قريش لتصطاد محمداً وصاحبه .

فهي من أبرز النساء في تاريخ الحركة الإسلامية وفي تاريخ الإسلام نفسه ، وليس تاريخها الحافل المجيد وقفاً على أنها أول امرأة تدخل الإسلام بعد زوج محمد عليه الصلاة والسلام ، ولا وقفاً على جهادها وهجرتها وأدائها مهمة تموين الصاحبين في الغار ، بل هي ذات تاريخ عظيم مشرق بعيد الآفاق متعدد النواحي .

فهي ذات صفات كريمة وأخلاق عظيمة ، ودين وتقوى وصلاح ، وأحد من بشرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة ، وذلك عندما شقت نطاقها نصفين تربط بأحدهما سفرة رسول الله وبالآخر قربته قال لها رسول الله : « أبدلك الله بنطاقك هذا نطاقين في الجنة » .

فهي من أهل الجنة بفضل الله ونعمته وكرمه ، وحسبها هذا ، ولكن وفقها الله لتكون من عباده الشاكرين ، فكانت حياتها كلها امتداداً لذلك اليوم الخالد ، يوم أن بشرها فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة حيث تلتقي فيها نطاقين بدل نطاقها المشقوق نصفين من أجل حاجة الرسول .

ويعدها فقهاء الإسلام من أصحاب الفتيا ، فذكرها ابن

حزم وغيره بينهم ، ومن الذي يستطيع أن يفتي إلا من فتح الله عليه وأنار بصيرته ووهب له من لدنه الحكمة والعلم النافعين .

وهي بين رواة الحديث تُعَدّ من أصحاب العشرات ، فقد روت ثمانية وخمسين حديثاً كما ذكر ابن حزم في جوامع السيرة ص ٢٧٩ ، والكازروني في مطالع الانوار .

ويروى أنها روت ستة وخمسين حديثاً ، والأول أرجح ، واتفق البخاري ومسلم في صحيحيهما على رواية أربعة عشر حديثاً ، وانفرد البخاري بأربعة ومسلم بأربعة .

وكان من فضل أسماء وأخلاقها الحميدة عتقها للرقاب تتقرب به إلى الله ، فكانت تعتق اثر كل مرضة تصحبها أو وعكة تلم بها كل ما تحت يدها من الرقاب . كما كانت سخية معطاء لا تقبض يدها عن انفاق وبذل . بل كانت تأمر أولادها وتنصح أهلها بالكرم والسخاء والصدقة والاحسان اقراضاً لله قرضاً حسناً يضاعف للمحسنين .

وأنفقت كل حياتها في الصالحات من الاعمال ، حتى انتقلت إلى ربها في مكة المكرمة في شهر جمادى الأولى سنة ٧٣ هـ عن عمر بلغ المئة قضته في العبادة وتفريج الكرب والبر .

رحم الله أسماء رحمة واسعة ، ورضي عنها وجعل الجنة سكنها .

---

* نشرت بمجلة « كلمة الحق » التي تصدر بمكة المكرمة في أربعة الأعداد الأولى التي صدرت منها وهي أعداد شهور المحرم وصفر وربيع الأول وربيع الثاني سنة ١٣٨٦ هـ (١٩٦٦ م) .

المرأة التي سمّاها الله مؤمنة

أم شريك القرشية العامرية ، واسمها غزية بنت جابر ابن حكيم ، وهي من أسبق النساء والرجال إسلاماً ، فقد كانت بمكة ، وسمعت برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبالدين الذي جاء به وبشر ، فوقع الإسلام من نفسها موقعاً حسناً ، فأسلمت ، وكانت متزوجة بأبي العكر بن سمي بن الحارث الأزدي الدوسي ، وولدت له شريكاً فعرفت به .

ولم تكتف باعتناقها الدين الجديد ، تقتصر به على نفسها ، بل كانت أكبر سيدة تدعو إلى الإسلام وتبشر به ، وهي أول سيدة قامت بالدعوة إلى الإسلام بعد اعتناقها إياه ، فكانت تدخل بيوت القرشيات بمكة ، وتبين لهن خزي الكفر والوثنية ، ومآثر التوحيد الذي جاء به محمد بن عبد الله ، وما في الإسلام من عز وخير ، وما في غيره من الذل والهوان في الدنيا والآخرة .

وكانت صادقة اللهجة في تبشيرها ودعوتها ، شجاعة قوية جريئة في إظهار ما تعتقد ، مثابرة على الدعوة ، ترغب نساء قريش في الإسلام ، وتبدي لهن محاسنه ومزاياه .

ولقيت أم شريك ما يلقى الدعاة الصادقون من العنت والإرهاق

والمقاومة والاضطهاد ، فقد ظهرت آثار دعوتها ، وعلم بها مشركو قريش فقاوموها ، واعتقلوها ، وقالوا لها : لولا قومك لفعلنا بك وفعلنا ، ولكننا سنردك اليهم .

ووكلوا بها نفراً من الرجال ، وأركبوها بعيراً ليس تحتها شيء موطأ ولا غيره ، بل أركبوها على ظهر البعير دون شيء، مبالغة منهم في إذلالها وتعذيبها ، وأوثقوها .

وما كان النفر ليسقوها أو يطعموها ، فقد منعوا عنها الطعام والماء منعاً ، وكان القيظ شديداً ، ونزلوا منزلاً ، ومضوا تحت الظل ، وتركوها في الشمس تصلى بحرها اللاهب حتى برح بها العطش وفتك بها الجوع ، ولم تعد تسمع ، وغم على بصرها فلا ترى .

ومضى عليها ثلاثة أيام وهي في أشد العذاب ، ونزل النفر في اليوم الثالث ، وتركوها في الشمس موثقة ، ومضوا إلى الظل يصيبون راحتهم وطعامهم وشرابهم ثم يرحلون بها .

وبينا هم في ظلهم وراحتهم ، وهي تحت الشمس تكويها حرارتها حتى شعرت ببرد على صدرها ، فاذا دلو ماء أصابت منه رشفة ثم ابتعد عنها ، ثم دنا منها فأصابت منه رشفة . ثم ابتعد عنها ، ثم وقع على صدرها فارتوت منه ، وصبت ما فيه على ملابسها وجسدها . وعاد اليها كل وعيها ونشاطها ، وشعرت بالشبع والري .

وصحا القوم وأقبلوا إلى ضحيتهم ينظرون ، فاذا ثيابها مبللة ، وصاحوا بها : أتحللت من وثاقك فأخذت سقاءنا وشربت منه ؟

وأجابتهم — وقد حسن منظرها ورجعت اليها قوتها — : لا ، والله ، ما شربت من سقائكم .

وقصت قصتها فلم يصدقوا ، وأسرعوا إلى سقائهم فاذا هو كما تركوه ، وقالوا لها : لئن كنت صادقة فدينك خير من ديننا .

وقذف الله في قلوبهم الايمان فآمنوا بدينها الذي اعتنقت ، فهاجروا معها إلى رسول الله .

وأم شريك هي التي وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم بمحضر من سيدتنا عائشة التي قالت من شدة غيرتها : ما في امرأة تهب نفسها لرجل خير .

وسماها الله في كتابه العزيز «مؤمنة» فقال تعالى (وامرأةً مؤمنة وهبت نفسها للنبي) .

ولكن رسول الله لم يقبل ، وهو الصحيح ، وقيل : إنه تزوجها ، فلما رأى بها كبرة طلقها ، والرواية الأولى هي الصحيحة كما يقول زوجي ، لأن رسول ألله تزوج نساء دون أم شريك في الحسن ، وليست هي بأكبر من بعض نسائه ، فهي قد وهبت نفسها للنبي ، ولكنه لم يقبل .

وروت عن رسول الله بضعة أحاديث .

وفي «الاصابة» : «أم شريك واحدة ، اختلف في نسبتها ، أنصارية أو عامرية من قريش أو أزدية من دوس ؟ واجتماع هذه النسب الثلاث ممكن ، كأن يقول : قرشية تزوجت في دوس فنسبت اليهم ، ثم تزوجت في الأنصار فنسبت اليهم ، أو لم تتزوج ، بل هي نسبت أنصارية بالمعنى الأعم» .

المرأة التي سمع الله قولها من فوق سبع سماوات

خولة بنت ثعلبة رضي الله عنها إحدى شهيرات النساء ، وهي صحابية فاضلة ، ذات جمال وخلق ، وقد أكرمها الله فنزل في أمرها قرآن يتلوه المسلمون منذ نزوله حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

والقرآن الذي نزل فيها هو قوله تعالى :

(قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير • الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم وانهم يقولون منكراً من القول وزوراً وإن الله لعفو غفور • والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير • فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم) .

وكانت خولة بنت ثعلبة عند أوس بن الصامت أخي الصحابي الجليل عبادة بن الصامت ، وكان في زوجها أوس بعض اللوثة ، وكان شيخاً طاعناً في السن ، وكانت زوجته امرأة

جميلة قوية .

وذات يوم حدثت «مناكفة» بين الزوجين ، وترادّا في الكلام ، وزحف كل منهما على صاحبه بالقول حتّى غضب الزوج الشيخ وحتّى ضجر منها وقال لها : أنتِ عليّ كظهر أمي .

ثم خرج إلى نادي قوم ، غير أن يمين الظهار التّي أطلقها أقلقته وغمته ، فهو يحبها ، وهي تحبه ، برغم فارق السّن الكبير ، وعاد إلى بيته ، وطلب إلى امرأته ما يطلب الزوج من زوجته ، فأبت عليه ، وما كانت تأبى لأنها تعرف عقاب الله لمن ترد يد زوجها حين يريدها . إنما كان إباؤها لأنه قذف يمين الظهار . والظهار كان طلاقاً في الجاهلية ، فهي لن ترضى بالسفاح بعد الزواج .

ووثب اليها زوجها الشيخ يمسك بها ، يجبرها على الرضا ، فقاومته ، وغلبت فتوتها شيخوخته ، وأبعدته عن نفسها وقالت له : والذي نفس خويلة بيده ، لاتصل إلي حتى يحكم الله تعالى فيّ وفيك بحكمه .

ثم لجأت إلى رسول الله تستفتيه فيما نزل بها وبزوجها من بلاء لا قدرة لها على احتماله .

حدّثت أم المؤمنين عائشة ، قالت : «تبارك الذي وسع سمعه كل شيء ، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى عليّ بعضه ، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي تقول : يا رسول الله ، أبلى شبابي ، ونثرت له ما في بطني ، حتى إذا كبر سني ، وانقطع ولدي ظاهر مني ، اللهم اني أشكو اليك .

وسمع رسول الله شكاتها ، ودار بينه وبينها حوار ، قالت له ، وشرحت قصتها فقال لها رسول الله : « حرمت عليه » فقالت : يا رسول الله ، ما ذكر طلاقاً .

ثم قالت : أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي ووحشتي وفراق زوجي وابن عمي ، وقد نفضت له بطني .

فأجابها رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حرمت عليه » .

وفي رواية من الروايات أن خولة قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، إن أوساً من قد عرفت ، أبو ولدي ، وابن عمي ، وأحب الناس إلي ، وقد عرفت ما يصيبه من اللمم ، وعجز مقدرته ، وضعف قوته ، وعي لسانه ، وأحق من عاد عليه أنا بشيء إن وجدته ، وأحق من عاد عليّ بشيء إن وجده هو ، والذي أنزل عليك الكتاب ما ذكر طلاقاً ، قال : أنت عليّ كظهر أمي .

فقال رسول الله : ما أراك إلا قد حرمت عليه .

وأخذت تجادل رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مرة ، وأخذت تحاوره ، وختمت حوارها وجدالها بدعائها وهي شديدة التأثر :

« اللهم إني أشكو اليك شدة وجدي ، وما شق عليّ من فراقه ، اللهم أنزل على لسان نبيك لنا فيه فرج » .

وتأثر لبكاء خولة من كان في بيت رسول الله من آل بيته ، فبكت أم المؤمنين عائشة وبكى من كان معها حزناً على خولة وزوجها ، ورحمة بالزوجين .

وبينا خولة في حزنها وبكائها ومراجعتها رسول الله أخذه

صلى الله عليه وسلم ما يأخذه عند نزول الوحي عليه .

ووصفت سيدتنا عائشة هذه اللحظات الرهيبة فقالت : « فبينا هي كذلك بين يدي رسول الله تكلمه ، وكان رسول الله إذا نزل عليه الوحي يغطّ في رأسه ، ويتربد وجهه ، ويجد برداً في ثناياه ، ويعرق حتى يتحدر منه مثل الجمان » .

وقالت عائشة لخولة : « يا خولة ، إنه لينزل عليه ، ما هو الا فيك » ومعنى حديثها : ان الوحي يتنزل على رسول الله ، ولعل هذا الوحي في خولة .

وملك الرعب خولة ولجأت إلى الله سبحانه وتعالى ودعته في ذلة وانكسار وصدق : اللهم خيراً فإني لم أبغ من نبيك إلا خيراً .

وتحدثت عائشة عن حال خولة فقالت : « ما يرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ظننت أن نفسها تخرج فرقاً من أن تنزل الفرقة » .

وسُرِّيَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووجهه مشرق ، وهو يبتسم ابتسامة ملأت الحاضرين – وبخاصة خولة – مسرة وسعادة ، وقال رسول الله : « يا خولة » ، قالت : لبيك ، ونهضت اليه فرحة مستبشرة ، فقد أدركت من تبسم رسول الله أن الله قد فرج الكرب بفضله ورحمته ، وقال رسول الله : انزل الله فيك وفيه : (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله) الآيات .

وبعد أن تلا عليها ما نزل فيها وفي زوجها من قرآن كريم قال لها : « مريه فليعتق رقبة » فقالت : يا نبي الله ، والله ،

ما عنده رقبة يعتقها ، والله ، ما له خادم غيري . فقال لها : « مريه فليصم شهرين متتابعين » ، فقالت : يا نبي الله ، والله مـا يقدر على ذلك ، إنه ليشرب في اليوم كذا وكذا مرة ، وقد ذهب بصره مع ضعف بدنه وإنما هو كالخرشافة . قال : « فمريه فليطعم ستين مسكيناً » . قالت : يا نبي الله ، والله ما عنده ما يطعم ، قال : « بلى . سنعينه ، مريه فليأت أمّ المنذر بنت قيس فليأخذ منها شطر وسق تمر فيتصدق به على ستين مسكيناً » .

ولا تسع الدنيا خولة من نزول قرآن فيها وفي زوجها ، ومن رحمة الله بهما ، وحل مشكلتهما الحاطمة ، ومن كرم رسول الله وآل بيته . فخرجت مستبشرة سعيدة فرحة ، فاذا زوجها أوس بن الصامت على الباب ينتظرها . وقال لها : ما وراءك يا خولة ؟ فتقول له : خير ان شاء الله ، قد أمرك رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تأتي أم المنذر بنت قيس فتأخذ منها شطر وسق تمراً فتصدّق به على ستين مسكيناً .

وفرح أوس مثل فرح زوجته وقال : لولا خولة لهلكت !

ومضى مسرعاً إلى حيث أمر أن يمضي ، وتصفه خولة فتقول : ذهب من عندي يعدو حتى جاء به على ظهره ، وعهدي به لا يحمل خمسة أصوع ، وجعل يطعم كل مسكين مدين .

والحق ، إن خولة بنت ثعلبة رضي الله عنها تضرب أروع الأمثلة على وفاء الزوجة وبرها برجلها بعد أن تكون السنون قد أفنت قوته ، والشيخوخة الفانية تجعله ثقيل الحركة ما يطيقهـا إلا كارهاً ، ويهولها أمر فراقه لا من أجل نفسها ، فهي نشطة

قوية متماسكة القوة ، ولكن أساها من زوجها الشيخ الفاني الضعيف ، كيف تفارقه وهو بأشد الحاجة اليها ، وما له من خادم غيرها ؟

إنها لا تريد إلا خدمته في شيخوخته الفانية ، أما هي ففيها من القوة والنشاط ما يمكنها من الحياة .

ويعجب بها وبوفائها الناس ، ويجلونها ويحترمونها ، يحترمها ويجلها أجلاء الصحابة ، فقد أكرمها الله بقرآن ينزل فيها ، وعرفوا لها هذا الفضل العظيم فقدروها قدرها .

وفي « الاستيعاب » و « الاصابة » وغيرهما : أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج من المسجد ومعه الناس وبينهم الجارود العبدي ، فإذا امرأة برزة على ظهر الطريق ، فيسلم عليها عمر فترد عليه السلام ، ويقف لها احتراماً .

وترى خولة عمر وما فيه من العز ، فتود أن تذكره بالله وهو غير ناسيه ، بل دائم الذكر له ، ولكن النصيحة واجب المؤمنين ، فتقول له : هيها يا عمر ، عهدتك وأنت تسمى عميراً في سوق عكاظ ، ترعى الضأن بعصاك ، فلم تذهب الأيام حتى سميت عمر ، ثم لم تذهب الأيام حتى سميت أمير المؤمنين ، فاتق الله في الرعية ، واعلم أنه من خاف الوعيد قرب عليه البعيد ، ومن خاف الموت خشي الفوت .

فضاق بها الجارود العبدي وقال لها : قد أكثرت على أمير المؤمنين أيتها المرأة .

فانبرى عمر للجارود يقول له : دعها ، أما تعرفها ، هذه خولة بنت ثعلبة امرأة اوس بن الصامت التي سمع الله قولها من فوق سبع سماوات ، فعمر أحق — والله — أن يسمع لها .

قاهِـرَة الأبْطَـال

أم عمارة : نَسيبَةُ بنت كعب الأنصارية من أول النساء المسلمات في تاريخ الإسلام . وهي من بني النجار من المدينة المنورة التي كانت تعرف بيثرب . وغيره رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى طابة أو طيبة .

وكانت قد أسلمت عندما عاد إلى المدينة وفدها من الأنصار ، الذين قابلوا رسول الله وبايعوه بيعة العقبة الأولى قبل الهجرة بسنتين إلا بضعة شهور .

وفي موسم الحج الذي يلي بيعة العقبة الأولى ، وفَدَ من الأنصار سبعون مسلماً ، فيهم أم عمارة نسيبة بنت كعب الأنصارية ، وأسماء أم عمرو بن عدي من بني سلمة . وفدوا لمقابلة رسول الله ، وقد قدموا مستخفين لا يشعر بهم أحد .

ودخلوا مكة في الموسم من ذي الحجة مع كفّار قومهم ، واجتمع هؤلاء المسلمون برسول الله وواعدوه أوسط أيام التشريق بالعقبة بين مكة ومنى وإلى منى أقرب .

ولما مضى من الليل ثلثه توافد هؤلاء المسلمون الأنصار سراً إلى العقبة ، وكان مع رسول الله عمه العباس ولم يكن قد أسلم حينئذ . وصحب رسول الله ليستوثق له من الأنصار .

ولما اجتمع عقد المسلمين الأنصار من أهل المدينة نهض فيهم العباس وتحدّث إليهم ، وقال : يا معشر الخزرج ، إن محمداً منا حيث قد علمتم في عز ومنعة ، وإنه قد أبى إلا الانقطاع اليكم ، فإن كنتم ترون أنكم تفون بما دعوتموه اليه ومانعوه فأنتم وذلك ، وإن كنتم أنكم مسلموه فمن الآن فدعوه فإنه في عز ومنعة .

وأصغى الأنصار إلى العباس ووعوا مقالته ، وقالوا : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله ، وخذ لنفسك وربك ما أحببت .

فتكلم رسول الله أحسن ما يكون الكلام ، وتلا من القرآن ما تيسر ، وأوضح لهم حقيقة الإسلام ورغبهم فيه ، ثم قال لهم : « تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم » .

فبايع السبعون ، وفيهم أم عمارة ، رسول الله على النصر والتمكين ، ومنعه مما يمنعون ذراريهم .

وكانت البيعة قبل الهجرة بثلاثة شهور ، وعادت أم عمارة مع قومها العائدين إلى المدينة فرحة بالإسلام ، معتزة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وثبتت أعظم ثبات على دين الله ، ونصرته بمالها ونفسها وزوجها وبنيها ، وفدت رسول الله بروحها وأرواح أعز الناس عليهم زوجها وابنيها .

ففي السنة الثالثة من الهجرة النبوية الشريفة حضرت غزوة أحُد ، لتداوي الجرحى ، واصطحبت معها عصائب تعصب بها الجرحى ، وتسعف من هو في حاجة إلى الاسعاف ، وتسقي الظامئين .

ودارت المعركة بين المسلمين والمشركين ، وكان النصر للمسلمين في أول الغزوة نصراً مبيناً ، ولما دارت الدائرة عليهم لمخالفة بعضهم أمر رسول الله انفض أصحابه عنه ، فأسرعت هي وزوجها زيد بن عاصم وابناها حبيب وعبد الله إلى رسول الله يحمونه ، ويدافعون عنه .

ووقفت أم عمارة وبيدها السيف تذود به عن رسول الله ، ومعها القوس ترمي الأعداء ، حتى خلصت اليها الجراح ، ومنها جرح على عاتقها ، له غور أجوف . وما زال هـذا الجرح بعد اندماله كذلك حتى لقيت ربها .

وأعجب بشجاعتها وبطولتها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال في حقها : «لمقام نسيبة بنت كعب اليوم خير من مقام فلان وفلان» .

واستعدت أم عمارة للدفاع عن رسول الله ، والجهاد الحق ، فحجزت ثوبها على وسطها ، وبرزت . وخاضت المعركة أشد ما يكون الخوض ، وقاتلت قتالاً شديداً لم يقاتله إلا أقوى الشجعان الأبطال بأساً وثباتاً .

وانقض عليها أحد أبطال المشركين الصناديد ابن قميئة بسيفه ، وضربها على عاتقها حتى أحدث به ذلك الجرح الغائر الأجوف العميق ، لأن ابن قميئة — عندما رأى المسلمين قد ولوا عن رسول الله وتركوه — أسرع إلى رسول الله صائحاً صيحة منكرة : دلوني على محمد ، لا نجوت إن نجا .

وما تكاد ترى هي والصحابي الجليل مصعب بن عمير وبعض نفر من المسلمين ابن قميئة ينقض ، ويسمعون وعيده

حتى اعترضته وهم معها ، يحمون رسول الله ، وأنزلت على ابن قميئة ضربات متلاحقة لم تؤثر فيه لأنه كان في درعين يتقي بهما ، ولكنه ضربها على عاتقها ضربة كان فيها ذلك الجرح العميق .

ونادى رسول الله ابن أم عمارة : « أمّك ، أمّك » ، فأسرع اليها يعصب جرحها على عاتقها ورسول الله يقول : « اعصب جرحها ، رحمكم الله أهل بيت ، مقام أمك خير من مقام فلان وفلان ، رحمكم الله أهل البيت » .

فقالت له أم عمارة : يا رسول الله ، ادع الله أن نرافقك في الجنة .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة » .

فقالت : ما أبالي ما أصابني من الدنيا .

وتقول أم عمارة ، وقولها الحق :

« قد رأيتني وانكشف الناس عن رسول الله ، فما بقي إلا في نُفَيْر ما يتمون عشرة ، وأنا وأبنائي وزوجي بين يديه ، نذب عنه ، والناس يمرون منهزمين ، ورآني لا ترس معي ، فرأى رجلاً مولياً ومعه ترس فقال لصاحب الترس : « إلق ترسك لمن يقاتل » ، فألقى ترسه ، وأخذته ، وجعلت أتترس به عن رسول الله ، وانما فعل بنا الأفاعيل أصحاب الخيل ، لو كانوا رجالة مثلنا أصبناهم إن شاء الله » .

وتقول أم عمارة متابعة حديثها :

« يقبل رجل على فرس فضربني ، وتترست له ، فلم يصنع

سيفه شيئاً وولى ، وأضرب عرقوب فرسه . فوقع على ظهره ، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يصيح : « يا بْن أم عمارة ! أمّك ، أمّك ! فعاونني عليه حتّى أوردته شعوب » ، أي أوردته الموت.

وانقض أحد الفرسان على ابنها عبد الله بن زيد وضربه بسيفه على عضده اليسرى . فاندفع الدم دون أن يقف ، فأمر رسول الله أن يعصب جرحه . وأقبلت أمه اليه ، وعصبت له جرحه من العصائب التي كانت معها . وقالت له بعد ذلك : انهض بني فضارب القوم . تريد ألا يشغله جرحه عن الذود عن رسول الله ، فنهض مع أمه يقاتل وهي تقاتل قتالاً شديداً مما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لها : « ومن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة » .

وأبصر رسول الله بضارب ولدها عبد الله بن زيد . فهتف بها رسول الله : « هذا ضارب ابنك » ، فتعترّض له أم عمارة وتنقض عليه بسيفها ، ضربته به على ساقه فيبرك ، فقال لها رسول الله وهو يبتسم حتّى بدت نواجذه : « استقدت يا أم عمارة » !

وتعزز أم عمارة هجومها عليه ، ويعينها نفر حتّى يأتون عليه ، فقال لها رسول الله : « الحمد لله الذي ظفّركِ ، وأقر عينكِ من عدوكِ ، وأراكِ ثأركِ بعينكِ » .

وانتهت معركة أحُد الرهيبة وبأم عمارة ثلاثة عشر جرحاً ، أبلغها ذلك الجرح الأجوف الغائر العميق على عاتقها .

ونادى منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم : إلى حمراء الأسد ، تعقباً للمشركين الذين غادروا ساحة أحُد ، يغذون

السير فراراً ، وأرادت أم عمارة أن تصحب رسول الله وحبيبه إلى حمراء الأسد ، غير أن جراحها كانت تنزف ، فلم تستطع ، وعادت إلى المدينة مكرهة ، وما كاد يعود رسول الله إلى المدينة من حمراء الأسد حتّى أرسل اليها مندوباً عنه هو عبد الله بن كعب المازني يسأل عنها .

ومضى ابن كعب إلى دار أم عمارة ، وأخبرها بما جاء من أجله ، فسُرّتْ سروراً لا حد له من سؤال رسول الله عنها ، ولما عاد رسول رسول الله اليه بخبر أم عمارة وأنها بخير كان سرور رسول الله عظيماً .

وحضرت أم عمارة بيعة الرضوان في الحُدَيْبية ، ونزل فيها وفي الذين بايعوه قول الله تعالى : (لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً) .

وكان رسول الله يقدر أم عمارة حق قدرها ، ويبرها ، ويكرمها ويزورها في بيتها . وزارها ذات مرة بدارها فقدمت له صلى الله عليه وسلم طعاماً ، فأكل منه ودعاها قائلاً : « تعالي فكلي » ، فقالت : يا رسول الله ، إني صائمة ، فقال : « إن الصام إذا أُكِلَ عنده لم تزل الملائكة تصلي حتّى يُفْرَغَ من طعامه » .

وفي رواية : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أكِل عند الصائم الطعام صلت عليه الملائكة » .

ومات رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت أم عمارة من الذين رضي رسول الله عنهم ، وقد حضرت معه خيبر والفتح وحنيناً .

وفي خلافة أبي بكر رضي الله عنه كان ذكرها مرفوعاً وقدرها عظيماً ، وقد بقيت في المدينة معززة مكرمة ، ولكن أم عمارة خلقت للجهاد ، ولم تجد الراحة في البعد عنه ، فجاءت إلى خليفة رسول الله أبي بكر الصديق تستأذن في الخروج إلى اليمامة مع جيش المسلمين تحت إمرة سيف الله خالد بن الوليد ، فقال : قد عرفنا بلاءك في الحرب ، فاخرجي على اسم الله تعالى .

وأوصى أبو بكر خالداً بها خيراً .

وخرجت أم عمارة ، وجاهدت في اليمامة جهاداً قل نظيره ، وأعجب ببطولتها وشجاعتها سيف الله .

وكانت في طليعة المجاهدين ، تتعرض للشدائد ولا تباليها ، وتقذف بنفسها في وجه الحرب ، وأبلت أعظم البلاء ، وجاهدت جهاداً حقاً ، وأظهرت من ضروب الشجاعة والإقدام كل فن ، وأصيبت بأحد عشر جرحاً ، وقطعت يدها .

وعادها سيف الله خالد في منزلها الذي نقلت اليه بعد أن أصابتها الجراح وقطع اليد . وطلب لها من العرب مداواتها ، وكان النزف شديداً لا ينقطع ، فأغلوا الزيت ووضعوا يدها فيه فكان ذلك أشد عليها من القطع .

وكان سيف الله خالد معجباً ببطولة أم عمارة وخلائقها ، كثير التعاهد لها ، شديد الاحترام والبر بها ، ويعرف حقها ، ويقدرها أعظم القدر ، حفظاً منه رضي الله عنه لوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصحبتها الكريمة إياه .

وكان معها ابنها البطل العظيم حبيب بن زيد رضي الله عنهما

وعن أم عمارة ، وقاتل قتالاً ليس أشد منه ، وأسره مسيلمة وقطعه تقطيعاً لما رأى من ثباته على إسلامه ، وحبه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتكذيبه مسيلمة في وجهه .

وعادت أم عمارة إلى مدينة رسول الله وبها جراحة ، فكان أبو بكر رضي الله عنه يعودها ويسأل عنها .

وتوفي أبو بكر وهو راض عنها . وتولى عمر بن الخطاب وحاله معها حال صاحبيه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأبي بكر رضي الله عنه .

جيء إلى عمر ذات مرة بمروط بينها مرط غال نفيس ، فقيل له : لو أرسلت به إلى زوجة عبد الله بن عمر : صفية بنت أبي عبيد وكانت حديثة عهد بالدخول عليه ، فرد عمر : سأبعث به إلى مَنْ هو أحق به منها . أم عمارة ، نسيبة بنت كعب ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوم أحد : « ما التفت يميناً ولا شمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دوني » .

ثم ودعت الدنيا . وانتقلت إلى ربها راضية مرضية ، لتكون في رفقة رسول الله صلى الله عليه وسلم . إذ سألته أن يدعو ربه أن يجعلها في رفقته عندما كانت تذود عنه من يريده من المشركين بسوء . فدعا لها ولذويها قائلاً : « اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة » .

رضي الله عن أم عمارة وجزاها خير الجزاء تلقاء سبقها إلى دينه الحق ، وجهادها في سبيله ، وحبها ودفاعها عن رسوله الكريم ، وجودها بنفسها وأنفس أحبائها : زوجها وأولادها من أجل إعلاء كلمة الله .

المرأةُ ذاتُ البَيانِ السّاحِرِ

أسماء بنت يزيد الأنصارية الصحابية الجليلة ، إحدى النساء البليغات في لغة العرب . وقد كانت محدّثة بارعة ، ندر مثلها بين النساء في فصاحتها وروعة أسلوبها وجمال بيانهـــا وحسن منطقها .

ويكفيها شهادة على هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد شهد لها ببلاغتها وتمام عقلها وجمال بيانها ، كما شهد لهـا بذلك الصحابة البلغاء الكرام .

وكانت عالمة فاضلة . روت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم واحداً وثمانين حديثاً [1] ، وروى عنها بعض الصحابة والتابعين .

وقد جمع الله لها المجد من أطرافه ، فكانت إلى جـــانب مزاياها الكثيرة وصفاتها الحميدة المعدودة مجاهدة عظيمة ، وبطلة مغواراً مقداماً ، خاضت المعارك . وقاتلت كما يقاتل أعظم الأبطال الشجعان .

- وبلغ من فضلها . وكمال خلقها ، وقوة بيانها ، وسمو منزلتها أن صحابيات جليلات انتدبنها وأوفدنها إلى رسول الله

---

١ جوامع السيرة . لابن حزم .

صلى الله عليه وسلم ، لتتحدث عن النساء المسلمات عامة في أمر عظيم . فقد اجتمع أولئك الصحابيات ، وتذاكرن أمرهن، وأسفن على حالهن ، وأن يذهب الرجل بالأجور والحسنات ، ولا يدركنهم فيها .

فمضت أسماء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في أصحابه الغر الميامين ، وألقت بين يديه كلمة رائعة ، هذا نصها :

« بأبي أنت وأمي يا رسول الله ،

« أنا وافدة النساء اليك .

« إن الله عز وجل بعثك إلى الرجال والنساء كافة ، فآمنا بك وبآلهك .

« وإنا معشر النساء محصورات ، مقصورات ، قواعــد بيوتكم ، ومقضى شهواتكم ، وحاملات أولادكم .

« وإنكم – معشر الرجال – فضلتم علينا في الجمع والجماعات وعيادة المرضى ، وشهود الجنائز ، والحج بعد الحج ، وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله عز وجل .

« وإن الرجل منكم إذا خرج حاجّاً ، أو مجاهــداً ، حفظنا لكم أموالكم ، وغزلنا ثيابكم ، وربينا لكم أولادكم.

أفلا نشارككم في هذا الأجر » .

ولما فرغت من كلمتها العظيمة التفت رسول الله صلى الله عليه وسلم بكل وجهه إلى أصحابه ، ثم قال : « هل سمعتم بمقالة امرأة قط أحسن من مسائلها في أمر دينها من هذه ؟ »

فقالوا : يا رسول الله ، ما ظننا امرأة تهتدي إلى مثل هذا .

وتوجه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أسماء وقال لها : « افهمي أيتها المرأة ، وأبلغي من خلفك من النساء ، أن حسن تَبَعّل المرأة لزوجها ، وطلبها مرضاته ، واتباعها موافقته يعدل ذلك كله » .

فهللت أسماء وكبرت ، وعادت فرحة سعيدة إلى موفداتها من النساء تحمل اليمن البشرى .

وبلغ من شجاعتها اشتراكها في حرب اليرموك ، وجهادها بنفسها . وثبتت مع الثابتين من المجاهدين ، فقد كان عدد الروم أكثر من عدد المسلمين أضعافاً ، وكانوا أكثر عدة وسلاحاً من المسلمين .

وبرزت أسماء قوة عاصفة بيدها عمود خبائها . وأخذت تضرب الروم حتى قتلت منهم تسعة من أبطالهم .

وأبلت أسماء بلاء حسناً ، وعمرت طويلاً ، ثم لقيت ربها ، رضي الله عنها ، وجزاها عن الإسلام والمسلمين خيراً .

السَابِقة ذَاتُ الهِجْرَتين

هي أسماء بنت عميس ، إحدى فضليات النساء ، وزوجها أعظم المجاهدين ، وأشبه الناس بخلْق رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلُقه ، إنه ذو الجناحين : جعفر بن أبي طالب .

وقد وصف أبو هريرة جعفراً فقال : « ما احتذى النعال ، ولا ركب المطايا ، ولا وطئ التراب بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من جعفر بن أبي طالب » .

تزوجها جعفر شهيد مؤتة ، وكانت له خير زوجة ، وكان لها من خير الأزواج ، أسلمت والإسلام في مبدأ أمره ، فكانت من أوائل من دخلوا في دين الله .

ولما اشتد الكرب على المسلمين بمكة من كفّار قريش هاجرت مع زوجها جعفر إلى الحبشة مع المهاجرين اليهـــا ، ورزقت منه بها بنيها عبد الله ومحمداً وعوناً ، وعادت مـــع زوجها إلى المدينة والنبي صلى الله عليه وسلم غائب بخيبر .

وفي رواية : ان رسول الله استقبل جعفراً بعد عودته من الحبشة وقبله بين عينيه .

وقد أكرم الله سيدتنا أسماء بنت عميس بالسبق إلى الإسلام ، وبالهجرة .

ولما عادت أسماء من الحبشة داعبها عمر بن الخطاب قائلاً :
يا حبشية ، سبقناكم بالهجرة .

فقالت : أي لعمري ، قد صدقت ، كنتم مع رسول الله يطعم جائعكم ، ويعلّم جاهلكم ، وكنا البعداء الطرداء ، أما والله ، لآتين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلأذكرن ذلك له .

وأتت النبي صلى الله عليه وسلم وأخبرته فقال : « للناس هجرة واحدة ، ولكم هجرتان » .

ولما وجه رسول الله جيش الإسلام إلى موتة لحرب الروم جعل القيادة في يد زوجها جعفر الذي جاهد في الله ورسوله حق الجهاد ، حتى قطعت يداه ، فلم يتخل عن الراية الإسلامية ، ولم يكفّ عن القتال ، ولم يتأخر ، بل كان في وجه العدو حتى نال الشهادة وطارت به الملائكة إلى الجنة .

وكانت أسماء في بيتها تدبر شؤونه ، دبغت ما تريد دبغه ، وعجنت عجينها ، وغسلت أولادها وطيبتهم ، وإذا رسول الله يزورها ويسألها عن أولاد جعفر ، فتحضرهم ، فيضمهم إلى صدره الحنون ، ويشمهم ، ولم يستطع رسول الله أن يمسك دمعه فذرفت عيناه وبكى .

ورأت أسماء ما رأت فتوجست خيفة وسألت رسول الله :
أي رسول الله ، لعله بلغك عن جعفر شيء ؟

قال : « نعم ، قتل اليوم » !..

فلم تتمالك نفسها وأخذت تلتدم وتصيح ، فأسرع النساء اليها ، واجتمعن لديها يولولن ويصحن ، فقال رسول الله :

« يا أسماء ، لا تقولي هجراً ، ولا تضربي صدراً » .

وبينا أسماء ونساء المسلمين ينحن على جعفر خرج رسول الله إلى بيت ابنته فاطمة ، فإذا هي تبكي وتصيح : يا عماه ، يتفطر قلبها ، وتتصدع كبدها من الفجيعة الفاجعة ، فقال رسول الله : « على مثل جعفر فلتبك الباكية ! » .

وبكت المدينة كلها رجالاً ونساء تشارك آل جعفر حزنها الأليم في فقدها العظيم .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في حزنه : « اصنعوا لآل جعفر طعاماً ، فقد شغلوا عن أنفسهم اليوم » .

وامتد الحزن بأسماء وبرح بها ، وإن كان استشهاد زوجها في سبيل اعلاء كلمة الله يملأ قلبها بالرضا ، فزوجها قد أبدله الله عن يديه المقطوعتين جناحين يطير بهما مع الملائكة ، ويبشرها الرسول قائلاً : « رأيت جعفراً يطير في الجنة مع الملائكة » .

وبينا رسول الله ذات مرة جالس ، وعلى مقربة منه أسماء بنت عميس ، قال : « يا أسماء ، هذا جعفر بن أبي طالب قد مر مع جبرائيل وميكائيل فردي عليه السلام » .

ولئن كان أفعمها رضا استشهاد زوجها في رضا الله ورضا رسوله فإن قلبها ما يزال حزيناً ، وسمعت رثاء شاعر رسول الله حسان بن ثابت فأسعدها هذا الذكر الجميل يتمتع به زوجها الشهيد :

وكنا نرى في جعفر من محمد
وفاء وأمراً صارماً حيث يؤمر

فلا زال في الإسلام من آل هاشم
دعائم عز لا تزول ومفخر

وصبرت أسماء صبراً جميلاً ، وعكفت على أولادها من جعفر ، تراه فيهم فيزداد حبها لهم ، ولا تنسى ذكراه التي تتجدد في ضميرها وفي سمعها وبصرها .

فحبه في ضميرها ... فهو يتجدد مع كل خفقة من خفقات قلبها ، وفي سمعها عندما تسمع كلام أولادها من جعفر ، وفي بصرها عندما تراهم يمرحون بين يديها .

وفي حُنين زوّج رسول الله أبا بكر أسماء بنت عميس ، وكانت له الزوجة البارة المطيعة ، وكان لها الزوج الذي يعرف لها فضلها ومزاياها بين السابقات المهاجرات .

وسعدت أسماء بهذا الزواج ، ورزقها الله بابنها محمد بن أبي بكر ، وكان في ولادته بركة وخير للمسلمين ، فقد نُفِست بمحمد ابن الصدّيق الأكبر أبي بكر بذي الحليفة ورسول الله يريد حجة الوداع ، فهمّ أبو بكر أن يعيدها إلى المدينة لأنها نُفَساء ، ودمها عليها ، والحج يفرض على صاحبه الطهر والنزاهة .

وقبل أن يعيدها سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجابه : « مرها فلتغتسل ثم تحرم » .

وعاشت أسماء في ظل أبي بكر الذي كان معجباً بها وراضياً عنها أيام خلافته . وأوصى قبيل مماته أن تغسله هي ، وأن يساعدها — إذا أرادت — ابنه عبد الرحمن بن أبي بكر .

ولما توفي خليفة رسول الله أبو بكر تولت غسله ، وكانت

الدنيا برداً ، وهي صائمة ، فسألت المهاجرين وفيهم عثمان بن عفان : أعليها غسل لأنها غسلت الميت ، فأجابها عثمان وقال : لا ، وعمر بن الخطاب يسمع فلم ينكر .

وكثير من الناس يحرم على الزوجة أن ترى زوجها الميت ، أو تلمسه ، بحجة أن أحد الزوجين إذا مات صار محرماً عليه النظر والملمس .

وغسل أسماء رضي الله عنها وعن أزواجها ، زوجها الصديق أبا بكر ووصيته أن تتولى غسله أكبر دليل على أن ما شاع من التحريم غير صحيح ، بل لا بأس بأن يغسل أحد الزوجين الآخر إذا مات .

فإذا كان في حادث أبي بكر جواز غسل الزوجة زوجها الميت فإن في قيام الإمام علي بغسل زوجته سيدتنا فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم إباحة الكشف واللمس ، ولا حرمة في ذلك .

وكثير من الناس يحسبون ذلك حراماً ، وما شيء من الحرام في ذلك . والله أعلم .

وعرف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مكانة أسماء بنت عميس ، وسبقها إلى الإسلام ، وهجرتيها ، ففرض لها ألف درهم .

وخطب الإمام علي بن أبي طالب أسماء بنت عميس ، فرضيت بخطبته وتزوجته ، وولدت له يحيى .

وذات مرة تفاخر ابناها محمد بن جعفر بن أبي طالب ومحمد بن أبي بكر الصديق بين يدي الإمام علي كرم الله

وجهه ، وقال كل منهما للآخر : أنا أكرم منك ، وأبي أفضل من أبيك ، فطلب الإمام علي من أسماء أن تقضي بينهما فقالت : ما رأيت شاباً من العرب خيراً من جعفر ، ولا رأيت كهلاً خيراً من أبي بكر .

فأعجب الإمام علي بجوابها وقال لها : ما تركت لنا شيئاً ، ولو قلت غير الذي قلت لمقتّك ! فقالت أسماء : إن ثلاثة أنت أخسّهم لخيار !..

وكان عمر رضي الله عنه مِنْ بين مَنْ روى عن أسماء بعض حديث رسول الله ، وكان يسألها في تفسير الرؤى .

وروى عنها الحديث بعض الصحابة ، وروت عن النبي صلى الله عليه وسلم ستين حديثاً .

المرأة التي قلّ نظيرها بين أشجع الشجعان

امرأة جميلة فارعة الطول ، قوية البنية ، شديدة الاسر ، مع رقة ولطف ، جمعت كل صفات الفروسية ، وفاقت الابطال والشجعان ، حتى ظنها الصناديد سيف الله خالد بن الوليد في بعض حروب المسلمين للروم ، بل أعجب بها خالد نفسه لما رأى من أعمالها البطولية التي لم يشهدها في بطل .

وحسبك من شاهد بالشجاعة والبطولة أن يكون سيف الله خالد بن الوليد .

إنها خولة بنت الازور ، ابنة شجاع ، وأخت شجاع ، وقلّ في تاريخ الدنيا بطل مثلها ، بل عز نظيرها بين أعظم أبطالها وشجعانها .

حضرت حروب المسلمين والروم ، وكانت أبرز المسلمين في القتال ، فقد اجتمع جيش الروم الذي لا يحصى ونظمت فرقهم الغارقة في السلاح أحسن تنظيم ، واستعد الروم للقتال .

وكان قائد جيش المسلمين سيف الله خالد بن الوليد ، فنظر فإذا فارس فارع الطول ، يرتدي ثياباً سوداً ، ولا يبين منه سوى عينين نفاذتين ، وعلى وسطه حزام ، وعلى رأسه عمامة

خضراء ، ولامته تكاد تغطيها ثيابه ، ويطير بفرسه حتى ليترك الفرسان خلفه ، وينقض على صفوف الروم انقضاضاً .

ويسأل خالد في دهشة واعجاب : ليت شعري من هـذا الفارس ؟ وايم الله انه لشجاع .

ويطير خالد بفرسه ويتبعه المسلمون إلى حيث يجول ذلك الفارس ويصول ، ذلك الفارس الذي مزق صفوف الروم شر تمزيق . وأدخل الرعب والفزع في قلوب أبطالهم ، ووالى هجماته على الكتائب المتجمعة حتى زحزحها عن أماكنها ، وفرت أمامه لا تلوي على شيء تطلب النجاة منه ، والفارس يجول في تقدمه يميناً وشمالاً ، واختفى بين كتائب الروم ، ثم برز بطوله الفارع ، وهو يهز رمحه ، وسنانه يقطر دماً .

وقلق عليه المسلمون . وقلق خالد نفسه عليه ، وسمع المسلمون صوت رافع بن عميرة وهو يهتف معجباً : من يكون هذا الفارس غير خالد بن الوليد ؟ ولكنه يرى خالداً يشرف عليه فيسأله رافع : من الفارس الذي يتقدمه ، فيقول خالد : والله ، اني لأشد انكاراً منكم له ! ولقد — والله — أعجبني ما ظهر منه ومن شمائله !! فقال رافع : والله انه لمنغمس في عسكر الروم لا يباليهم ، ويطعن يمينا وشمالاً .

وهنا صاح خالد : يا معاشر المسلمين ، احملوا بأجمعكم ، وساعدوا المحامي عن دين الله ، شدوا شدة رجل واحد .

وطار خالد يريد الفارس المعلم ، وتبعه المسلمون وقد أطلقوا الاعنة وقوموا الاسنة ، وتزاحموا وهم يريدون أن يحموا الفارس ويساعدوه ، ولكن الفارس كان في شغل عنهم ، والروم يتزاحمون عليه وهو يصرعهم ويخلطهم حتى عاد إلى

صفوف المسلمين وقد تخضب بالدماء .

وكبّر خالد وكبّر المسلمون ، ودوى ميدان القتال والحرب وأقبلوا على الفارس وهم يقولون : لله درك من فارس ذاد عن دين الله وفتك بالمشركين شرّ فتك !.. اكشف لنا عن لثامك !...

غير أن الفارس تركهم ولم يجبهم ، وكر على الروم حتى اختفى بين صفوفهم وكأنه نار واعصار ، وأدركه خالد وقال له متوسلاً : ويحك ، لقد شغلت قلوب المسلمين وقلبي ، لله درك مَنْ أنت ؟.. وألح خالد ، فأجابه الفارس : أنا خولة بنت الازور ، علمت أن ضراراً أسير فجئت أنتقم له وأفك أسار أخي ، وأجاهد بذلك في سبيل الله !..

وقال خالد : لله درك ، نحمل بأجمعنا ولعل الله يفك أخاك من الاسر .

وتحدث عامر بن الطفيل أحد الابطال المغاوير : كنت عن يمين خالد بن الوليد حين حمل وحملت خولة بنت الازور أمامه وحمل المسلمون ، وأصابت الروم خسائر لا تقدر ، وعظم عليهم ما نزل بهم من خولة وقال الروم : ان كان في القوم أمثال هذا الفارس فما لنا به طاقة .

وبرزت خولة من صفوف المسلمين وتركتهم خلفها وانقضت على الروم تطأ خيامهم وتجندل أبطالهم بحثاً عن أخيها حتى الظهر ، وافترق المتحاربون بعد ان انتصر المسلمون انتصاراً مؤزراً مبيناً ، وقتل من الروم خلق كثير .

وعادت خولة حزينة لأنها لم تجد خبراً عن أخيها ، وأخذت

تسأل المسلمين عنه فلم تسمع عنه شيئاً ، واستبد الحزن بهـا فأخذت تبكي بكاء شديداً وهي تقول : أخي ، يا بن أمي ، أين أنت ؟ ليت شعري بأي بيداء طرحوك ! ليتني أعرف مكانك لجئت اليك !.. لقد تركت في قلب أختك لهباً لا ينطفئ ، عليك مني السلام حتى نلتقي !..

أبعد أخي تلذ الغمض عيني
وكيف ينام مقروح الجفون ؟
واني ان يقال مضى ضرار
لباكيـة بمنسجم هتـون

وبكى لبكائها المسلمون ، وتمنى كل منهم انه فداء عبراتها ، بل بكى سيف الله خالد ، وهنا رأوا فرقة من الروم تقصد اليهم ، فاستعدت خولة وخالد والمسلمون ؛ ولكن الفرقة ألقت سلاحها وطلب قائدها الأمان ، فأعطيه ، واستسلم بلا قيد ولا شرط ، وسأله خالد عن ضرار بن الازور ان كان لديه نبأ عنه ، فأجابه : ان ضراراً قتل ابن عاهلنا وقتل منا عدداً عظيماً ، فتكاثرنا عليه وأسرناه وبعثناه إلى عاهلنا ليرى فيه رأيه .

أسروا ضراراً وبعثوا به في حراسة مائة فارس إلى حمص ، ولكن الطريق طويل ، ففرح خالد ودعا رافع بن عميرة وقال له : ما أعلم أحداً أخبر منك بالمسالك ، وما في الأرض من هو أكثر منك حيلة وتدبيراً ، فاختر معك من تشاء ، والحق بالقوم وانقذ منهم ضراراً .

فاختار مائة فارس ، وعلمت خولة فلبست لامتها وتقلدت سيفها واعتقلت رمحها ورجت خالد بن الوليد أن تكون من بين من

يسيرون مع رافع فأذن لها .

وسار الركب على اسم الله يطوي الأرض طياً حتى وصل على مقربة من «سلمية» ، وهي قرية تابعة لحماة . ففحص رافع الأرض وقال لصحابه ولخولة : أبشروا فالقوم لم يصلوا بعد .

وكمن المسلمون في واد هناك . وبينما هم كذلك لاحت لهم غبرة ، فقال رافع لمن معه : أيقظوا خواطركم وانتبهوا واستعدوا جميعاً .

واستعدت خولة ، حتى إذا دنا القوم وفي وسطهم ضرار ، وكانوا حلقة عليه ، فكبّرت خولة فدوى الوادي ، وكبّر المسلمون ، وطارت خولة فكانت كالشهاب المنقض ، وتبعها الفرسان المسلمون ورافع ، وبعد ساعة انجلت المعركة عن قتل كل حراس ضرار ، واستطاعت خولة أن تفك أخاها من الأسر ، وغنم المسلمون كل ما كان معهم وعادوا إلى خالد ابن الوليد .

واشتركت خولة في معارك رهيبة بين المسلمين والروم ، وفي وقعة «صحورا» من أعمال الشام ، وقعت خولة بنت الازور في الأسر ومعها عديد من النساء ، أسرهن الروم ، ووضعوهن في مكان شددوا عليه الحراسة .

وقضين في الأسر أياماً ولا سلاح معهن ، يدافعن به ، ولكن خولة وقفت في النساء تخطب وقالت : «يا نساء المسلمين ، يا بنات تبع وحمير ، أترضين لأنفسكن علوج الروم ؟ أترضين أن يكون أولادكم عبيداً لهم يسومونهم الخسف والذل ؟ أين شجاعتكن ؟ أين إباء العرب ؟ اين

كرامة الإسلام ؟ أين شجاعتكن التي تتحدث بها أحياء العرب ومحاضر الحَضَر ؟.. إن الموت أهون عليكن من خدمة الروم ! » .

فقالت عفراء بنت غفار الحميرية : صدقت والله يا ابنة الازور ، نحن كما ذكرت شجاعة وإباء ، وان السيف يحسن فعله في مثل هذا الموقف ، وإنما دهمنا العدو على حين غفلة منا ، وما نحن إلا كالغنم بدون سلاح . وتداول النساء وخولة الرأي ، وكانت كل أسيرة تتمنى الموت ولا تكون لعلج من علوج الروم ، ولكن أين السلاح ؟ السلاح هو كل ما ينقصهن أما الشجاعة ورباطة الجأش وقوة القلب فعندهن منها ما ليس لدى الاعداء .

ولكن خولة بنت الازور قالت : يا بنات التبابعة ، خذن أعمدة الخيام وأوتاد الأطناب ، ولنحمل بها على هؤلاء اللئام ، فإما الشهادة ، وأما النجاة . والله ناصر من ينصره . يا بنات التبابعة ، لنخلص أنفسنا من العار قبل أن يجللنا أو يجلل إحدانا ، لنصدق في اللقاء ولنتكل على الله .

وقالت عفراء : والله ، للذي دعوت اليه هو الحق ، وما نطيق أن نحيا مع الذل والعار ، وان الموت لأحب الينا جميعاً من عار لا يمحى .

واتفق رأي الاسيرات ، وحددن ساعة الصفر لتنفيذ ما قررنه ، وقادت خولة بنت الازور الاسيرات ، وألقت خولة عموداً على عاتقها واستعدت لخوض المعركة وقالت لهن : اياكن والضعف والفرار ، لنكن جميعاً ، ولا يفترق بعضنا عن بعض ، حتى لا يقع علينا التشتيت ، واحطمن رماح القوم واكسرن

سيوفهم ، وكبّرن في القتال واصبرن .

وبرزت خولة بعد أن شدت ثيابها على نفسها وخلفها عفراء بنت غفار أم ابان بن عتبة ، وسلمة بنت زارع ، وروعة بنت عملون ، وسلمة بنت النعمان ومن معهن من النساء ، وكلهن يحملن أعمدة ، وشددن شدة رجل واحد . وبادرت خولة حارساً بالعمود الذي تحمل فأردته ، وشد النساء على الحراس والجند وقاتلن قتالاً رهيباً .

وذهل الروم من المفاجأة غير المنتظرة ، واعتقلت خولة رمحاً ، فأخذت تقاتل به ، وتتقي طعنات الرماح وضربات السيوف بعمود في يسراها حتى بددت جموع الروم بمن معها من النساء البطلات ، وخلصن أنفسهن من أسر الروم ، وعدن إلى معسكر المسلمين ليقاتلن في صفوفهم من جديد ، ويجاهدن لاعلاء كلمة الله .

وتوفيت خولة في أواخر خلافة سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه وعنها .

وتاريخ خولة يعد من أشرف تواريخ الابطال سواء أكانوا رجالاً أم نساء ، ويكفي أن يظن الناس خولة وهي تقاتل الروم خالد بن الوليد .

فإذا كان خالد بن الوليد رضي الله عنه سيف الله بين الرجال ، فان خولة بنت الازور سيف الله بين نساء العالمين .

ولم يذكر تاريخ الإنسانية كله على ما مر بها من زمن لا يعرف مبتدأه غير الله امرأة قط في شجاعة خولة بنت الازور ، تلك الشجاعة التي تضعضع لجبروتها أبطال الروم

الصناديد ، ووقف بين يديها أعظم شجاع وبطل وقائد أنجبته الدنيا خالد بن الوليد وأعظم ابطال الإسلام وهم معجبون بها ، معجبون بشجاعتها النادرة ، وبطولتها المثالية ، وعملها البطولي الفذ .

هذه هي خولة بنت الازور العربية المسلمة .

---

* نشرت بجريدة « عكاظ » سنة ١٣٨٢ هـ (١٩٦٢ م) .

رد على نقد

في العدد ١٦٠ من عكاظ علق الاستاذ الفاضل حسين سراج على ما كتبت عن خولة بنت الازور رضي الله عنها بقوله : « قرأت مقالاً لطيفاً كتبته إحدى السيدات عن خولة بنت الازور وكيف قاتلت الروم في لباس الفرسان تحت قيادة خالد بن الوليد . وقد جاء في هذا المقال ما نصه :

« وتحدث عامر بن الطفيل أحد الأبطال المغاوير قال : كنت عن يمين خالد بن الوليد حين حمل وحملت خولة بنت الازور وحمل المسلمون إلى آخر ما قال » .

ونقد هذه الكلمة بقوله : « وهذا خطأ ، فان عامر بن الطفيل لم يسلم ولم يقاتل مع المسلمين ، وإنما كان عدواً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومات في عهده فلم يدرك أيام أبي بكر ولا حرب الروم مع خالد أو غيره الخ » .

وأنا لم آت بما ذكرت في مقالي عن خولة بنت الازور باسم عامر بن الطفيل من عندي ، بل من مصادر اعتمدها علماء أعلام محققون فلو رجع الاستاذ حسين سراج إلى كتاب « اعلام النساء » لعمر رضا كحالة لوجد في صفحة ٣٢١ من الجزء الثاني قول عامر بن الطفيل :

« كنت عن يمين خالد بن الوليد حين حملوا وحملت خولة وحمل المسلمون وعظم على الروم ما نزل بهم من خولة بنت الازور » .

فإذا صح ما أخذه الناقد فالخطأ ليس مني ولكن من المؤرخين الاعلام ،ومع هذا فإن ما ذكرته ليس خطأ كما ذكر الناقد بل صواب ، لأن هناك اثنين يحملان اسم « عامر بن الطفيل » أحدهما عامر بن الطفيل الذي أشرت اليه ، والآخر هو الذي أشار اليه الناقد وهو عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر الكلابي رئيس بني عامر في الجاهلية ومات كافراً .

وأما عامر بن الطفيل الذي ذكرته أنا فهو صحابي ، وهو الذي حضر مع خالد بن الوليد حرب الروم ، وذكره الترمذي والطبري في الصحابة . وإذا رجع الاستاذ الناقد إلى كتاب « الاصابة » لرأى ان عامر بن الطفيل مذكور في الصحابة وهو غير الذي أشار اليه .

وهذه « معلومات » ليس لي فضل فيها ، بل الفضل فيها لزوجي الذي يعاونني على اعداد تراجم شهيرات النساء في الإسلام ،ويساعدني على كتابتها بالتوجيه والمصادر والتصحيح والتهذيب . وقد سألته عن نقد الاستاذ سراج فأجابني بما كتبته في الرد عليه .

---

* نشرت بجريدة « عكاظ » سنة ١٣٨٣ هـ (١٩٦٣ م) .

المُسْلِمَةُ التي غَزَتْ أُورُوبَا

أم حرام بنت ملحان الانصارية اشتهرت بكنيتها، وقيل اسمها «الرميصاء» وهو غير صحيح كما ذكر الثقات ، ولعل اسمها كنيتها .

وأم حرام من خير النساء ، فهي صحابية جليلة ، أسلمت عن ايمان ، وبايعت عن صدق ، وهاجرت عن رضا ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقدرها حق القدر ، ويكرمها ، ويشرفها بزياراته اياها بمنزلها في قباء ، وما ذهب الرسول إلى قباء إلا زارها وقال لديها ، وطعم من طعامها .

وذات مرة كان نائماً عندها ثم استيقظ ضاحكاً وقال عليه الصلاة والسلام : «عرض على أناس من أمتي يركبون ظهر البحر الاخضر كالملوك على الاسرة» فقالت أم حرام : يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلني منهم !

وعاد رسول الله إلى النوم وهو في بيتها بقباء ، واستيقظ ضاحكاً وقال : «عرض على أناس من أمتي يركبون ظهر البحر الاخضر كالملوك على الاسرة» فقالت أم حرام : يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلني منهم ، فقال : «أنت من الأولين» .

وتحققت نبوءة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد ركبت

البحر الأخضر كالملوك على الاسرة ، تحققت النبوءة الكريمة وكانت من براهين النبوة الصادقة ، تحققت بعد موت الرسول بسنوات كثيرة .

ففي سنة سبع وعشرين من الهجرة أو سنة تسع وعشرين ، عزم المسلمون على غزو جزيرة قبرس في خلافة سيدنا عثمان ابن عفّان ، وأعدت العدة للغزو ، وكان مع الغزاة عبادة ابن الصامت الذي تزوج أم حرام وصحبها معه من المدينة المنورة إلى الشام ، ومن دمشق انضم عبادة وزوجه إلى الغزاة المجاهدين .

ومضت سفن المسلمين متجهة إلى قبرس ، وفيها أم حرام الذي تنبأ لها الرسول صلى الله عليه وسلم بأنها من الأولين ، وتنبأ لها بالشهادة .

خرجت أم حرام تغزو مع جيش المسلمين وتركز علم التوحيد في جزيرة البحر الاخضر (الأبيض الآن) ، وعندما رست السفن على أرض الجزيرة وهبطت المجاهدة أم حرام أدنوا لها دابة تركبها فنفرت فصرعتها ودفنت بجزيرة قبرس سنة ٢٧ هـ أو ٢٩ هـ .

وأم حرام خالة أنَس بن مالك ومن رواة الاحاديث الصحيحة .

---

* نشرت في جريدة « عكاظ » سنة ١٣٨٠ هـ (١٩٦٠ م) .

اِمرأةٌ يُسْتَشْهَدُ كلُّ مَنْ يَتزوَّجُها

عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل القرشية ، من أجمل نساء العرب ، وأشعرهن وأكرمهن ، وصحابية جليلة ومهاجرة، كثيرة الصلاة ، كان جمالها مشهوراً سحرت به الرجال .

ولكن لازمها نحس الطالع . فكان كل من يتزوجها يموت قتيلاً . ومع ذلك لم يزهد فيها أعظم الرجال . بل تزوجها فكانت نتيجتهم القتل .

تزوجها عبد الله بن أبي بكر الصديق ، فبهره جمالها وشغله عن عمله ومغازيه ، بل شغله عن شهود صلاة الجمعة . فقد مر ذات جمعة أبوه به وهو في علية يناغيها . وعاد من الصلاة فاذا هو معها . فسأله أبو بكر ان كان صلى الجمعة . فسأله : أوَ صلى الناس ؟

وتأذى الصدّيق من اشتغال ابنه عبد الله بعاتكة عن التجارة والمعاش والمغازي والصلاة فأمره بتطليقها ، فأطاعه وطلقها .

وذات ليلة كان الصدّيق يصلي على سطح داره فسمع ابنه عبد الله ينشد :

أعاتك لا أنساك ما ذر شارق

وما نام قمري الحمام المطوق

أعاتك قلبي كل يوم وليلـــة

لديك بما تخفي النفوس معلق

لها خلق جزل ورأي ومنطـــق

وخلق مصون في حياء ومصدق

فلم أر مثلي طلق اليوم مثلها

ولا مثلها في غير شيء تطلق

وبرح الشوق والحب بعبد الله . وأدرك الصدّيق أنه قسم على ابنه ، فناداه من حيث هو : يا عبد الله ، راجع عاتكة .

وما كادت كلمات أبي بكر تصل إلى أذن عبد الله حتى طار من الفرح ، وكأنه في حلم . ورد على أبيه قائلاً : اشهدك اني قد راجعتها .

وكانت عاتكة تعيش على مقربة منه في «جناح» آخر من منزل عبد الله . وجرى إلى حيث هي فرأى غلامه أيمن في طريقه فقال له : يا أيمن . أنت حر لوجه الله تعالى ، اشهدك اني راجعت عاتكة . حتى إذا دنا من مكانها قال مرتجلاً :

أعاتك قد طلقت في غير ريبة

وروجعت للأمر الذي هو كائن

كذلك أمر الله غاد ورائــح

على الناس فيه ألفة وتبـــاين

وما زال قلبي للتفرق طـائراً

وقلبي لما قد قرب الله ساكن

ليهنك اني لا أرى فيك سخطة

وانك قد تمت عليك المحاسن

فأنك ممن زين الله وجهه ..
وليس لوجه زانه الله شائن

وامتلأت أقطار نفس عبد الله بالفرح والبهجة . وكان سرور عاتكة عظيماً . ووهب لها عبد الله حديقة على ألا تتزوج بعده .

وخرج عبد الله إلى الطائف في أيام خلافة أبيه فأصيب ومات شهيداً ، وبكته عاتكة بكاء حاراً ما يحبس دمعها حابس ، ورثته بقولها :

فلله عيناً من رأى مثله فتى
أكر وأحمى في الهياج وأصبرا
إذا شرعت فيه الاسنة خاضها
إلى الموت حتى يترك الرمح أحمرا
فأقسمت لا تنفك عيني سخينة
عليك ولا ينفك جلدي أغبرا

وتزوجها بعد عبد الله بن أبي بكر زيد بن الخطاب فقتل يوم اليمامة .

ثم تزوجها عمر بن الخطاب رضي الله عنه . وجاءه علي ابن أبي طالب وقال له : لي إلى عاتكة حاجة فقل لها تستتر حتى أكلمها . فقال عمر : يا عاتكة . هذا ابن أبي طالب يريد أن يكلمك ، فقال علي : يا عاتكة

فأقسمت لا تنفك عيني سخينة
عليك ولا ينفك جلدي أغبرا

فقال عمر : وما أردت إلى هذا ؟ قال علي : شيء كان

في نفسي أحببت أن يخرج ، وقد قال الله تعالى : « كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » . فقال عمر : يا أبا الحسن ، كل النساء يفعلن هذا .

وقتل عمر في المسجد النبوي الشريف وهو يصلي ، فرثته عاتكة بمقطوعات كثيرة منها قولها :

عين جودي بعبرة ونحيب
لا تملي على الإمام النجيب
فجعتني المنون بالفارس المعـ
ـلم يوم الهياج والتلبيب
عصمة الناس والمعين على الدهـ
ـر وغيث المنتاب والمحروب
قل لأهل الضراء والبؤس موتوا
قد سقته المنون كأس شعوب

ومنها قولها :

منع الرقاد فعاد عيني عود
مما تضمن قلبي المعمود
يا ليلة حبست عليّ نجومها
فسهرتها والشامتون هجود
قد كان يسهرني حذارك مرة
فاليوم حق لعيني التسهيد
أبكي أمير المؤمنين ودونه
للزائرين صفائح وصعيد

وتزوجها الزبير بن العوام بعد عمر بن الخطاب ، وكانت عاتكة حريصة على الصلاة في المسجد جماعة ، حتى صلاة الفجر كانت تخرج اليها ولا تتركها جماعة .

وغار الزبير ومنعها فأبت وقالت : لغيرتك أترك مصلى صلّيت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر فيه ! فقال الزبير : لا أمنعك يا عاتكة .

وذات مرة سبقها الزبير وكمن لها عند سقيفة بني ساعدة ، فلما أقبلت عاتكة — وكانت عجزاء بادنة — خرج الزبير من مكمنه وضربها على ردفها وفر فقالت : قطع الله يدك . وعادت إلى منزلها .

فلما جاء الزبير قال لها : ما لي لم أركِ في مصلاك؟ .. فقالت : يرحمك الله أبا عبد الله ، فسد الناس بعدك ! الصلاة اليوم في البيت أفضل .

وفرح الزبير لهذه النتيجة ، فلم تعد عاتكة تخرج للصلاة بعد حادثته معها . وقيل : إن الحادثة حدثت مع عمر بن الخطاب . وكلاهما كان غيوراً .

ونستلهم من حديث علي ابن أبي طالب مع عاتكة جواز تحدث المرأة إلى الرجل الأجنبي ، وجواز حضورها الجماعة والجمعة وان كان بغير رضا الزوج ، وان كان أفضل للمرأة رضا زوجها ، والصلاة في بيتها .

وقتل الزبير شهيداً ، اغتاله ابن جرموز ، فرثته عاتكة :

ان الزبير لذو بلاء صـادق
سمح سجيته كريم المشهـد

كم غمرة قد خاضها لم يثنه
عنها طرادك يا بن فقع القردد

وخطبها علي بن أبي طالب بعد استشهاد الزبير فاعتذرت قائلة : اني أضن بك يا بن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم على القتل ، فكان علي يقول : من أراد الشهادة الحاضرة فليتزوج عاتكة .

وتزوجها الحسين بن علي بن أبي طالب ، وخرجت معه إلى كربلاء ، وكانت تقف إلى جانب زوجها – رضي الله عنه وعنها – فلما قتل أقبلت عليه ورفعت خده عن التراب ، ولعنت قاتله ومن رضي بقتله وقالت :

وحسيناً فلا نسيت حسينا
اقصدته أسنة الاعداء
غادروه بكربلاء صريعاً
لا سقى الغيث بعده كربلاء

وامتنعت بعد الحسين عن الزواج وتأيمت ، ولما خطبها مروان بن الحكم قالت : ما كنت لاتخذ حماً بعد رسول الله صلى الله عليه وسلام .

لقد قتل كل من تزوجها ، قتل شهيداً ، وهم : عبد الله ابن أبي بكر ، وزيد بن الخطاب ، وعمر بن الخطاب ، والزبير بن العوام ، والحسين بن علي ، رضي الله عنهم وعنها .

* نشرت بجريدة « عكاظ » سنة ١٣٨٣ هـ (١٩٦٣ م) .

الشاعِرَةُ المجُاهِدَة

أروى بنت عبد المطلب ، عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإحدى الصحابيات المهاجرات .

وكانت تنصر رسول الله وتؤيده قبل اسلامها وبعده ، ودخل عليها ذات يوم ابنها طليب بن عمير — وكان من أوائل المسلمين — وأخبرها انه أسلم وتابع محمداً . فقالت له : ان أحق من وازرت وعضدت ابن خالك . والله لو كنا نقدر على ما يقدر عليه الرجال لتبعناه وذببنا عنه !

فقال لها ابنها طليب : وما يمنعك يا أمي من الإسلام ومن اتباعه ، وقد أسلم أخوك حمزة .

قالت : أنظر أمري وما يصنع اخواتي ثم أكون إحداهن .

فقال طليب : اني أسألك بالله الا أتيت فسلمت عليه وصدقته وشهدت ألا إله إلا الله محمد رسول الله .

وأسلمت اروى وكانت تحض ابنها أن ينصر رسول الله ويقوم بأمره صلى الله عليه وسلم ، وكانت تشجعه مما كان له أطيب الأثر في نفسه ، حتى انه سمع رجلاً يشتم رسول الله ، فأخذ لحى جمل وضربه به وشجه وأسال دمه . فكان ما أراقه

طليب بن اروى أول دم يراق على بعض الاقوال .

وكان ابنها يلقى أعداء محمد عليه صلوات الله وسلامه بما يكرهون ، ويذب عن رسول الله ذَبّاً لا يبالي نفسه وروحه ، حتّى أوثقه كفار من قريش ، وأطلقه أبو لهب وذهب إلى أروى وقال : ألا ترين ابنك طليباً صير نفسه غرضاً دون محمد .

طلب أبو لهب من اروى أن تمنع ابنها من مناصرة الرسول ولكنها قالت : خير أيام طليب يوم يذب عن ابن خالته* ، وانه والله جاء بالحق من عند الله .

فسألها : أتبعت محمداً ؟..

فأجابت أروى : نعم ، تبعته . فقال أبو لهب : عجباً ! تتركين دين عبد المطلب ، وتتبعين محمداً ؟

قالت له : قم دون ابن أخيك واعضده وامنعه ، فان يظهر أمره فأنت بالخيار ، تدخل معه أو تكون على دينك ، فان يصب كنت قد اعذرت في ابن أخيك .

فقال أبو لهب : ألنا طاقة بالعرب جميعاً ، لقد جاء بدين محدث .

ولم تستطع أروى اقناع أبي لهب ، كما أخفق أبو لهب في ابقاء أروى على دين عبد المطلب .

وكانت أروى من ألسنة الدفاع والدعاوة للإسلام ورسول الإسلام ، وكانت تدافع عن الرسول بلسانها ، وتعلن إسلامها لا تخشى أحداً ، وكان يسعدها أن ترى ابنها يجعل من نفسه درعاً دون رسول الله حتّى أثنت عليه وقالت :

ان طليباً نصر ابن خاله
واساه في ذي دمه وماله

وأروى من الصحابيات المهاجرات وشاعرة من شواعر العرب ، وكانت تتحلى بأجمل الاخلاق وأكرم المزايا .

وقد رثت أروى أباها عبد المطلب فقالت :

بكت عيني وحق لها البكاء
على سمح سجيته الحياء
على سهل الخليقة أبطحي
كريم الخلق نيته العلاء
طويل الباع أملس شيظمي
أغر كأن غرته ضياء
وكان هو الفتى كرماً وجوداً
وبأساً حين تنسكب الدماء
إذا هاب الكماة الموت حتى
كأن قلوب أكثرهم هواء
مضى قدماً بذي ربد خشيب
عليه حين تبصره البهاء

ولما انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى رثته أروى بقولها :

ألا يا رسول الله كنت رجاءنا
وكنت بنا براً ولم تلك جافيا

كان على قلبي لذكر محمد

وما جمعت بعد النبي المجاويا

واروى من أوائل المسلمين ، واشتركت في الجهاد المقدس بالهجرة ، وكانت تنافح عن الإسلام وتدافع عن رسول الله ، وتدعو إلى الدين الجديد الذي جاء لانقاذ الإنسانية ، حتى توفاها الله في سنة ١٥ من الهجرة .

رحمها الله وأسكنها الجنة .

---

* نشرت في جريدة « عكاظ » سنة ١٣٨٣ هـ (١٩٦٣ م) .

المرأة الوحيدة التي كان صداقها الإسلام

هي أم سليم بنت ملحان بن خالد بن زيد بن حرام ، وأمها مليكة بنت مالك بن عدي .

واختُلف في اسم أم سليم ، فقيل : الغُمَيْصاء ، والرّمَيْضاء وسهلة ، ورُمَيْلة ، ورُمَيْثة .

ولعل الغميصاء أصح ، لأن الحديث الشريف ورد به عندما بشرها الرسول صلى الله عليه وسلم بالجنة .

وتزوجها مالك بن النضير بن ضمضم بن زيد بن حرام قبل الإسلام .

وعندما أكرم الله الأرض بدين الإسلام اقتنعت به ، وآمنت برسول الله محمد عليه صلوات الله وسلامه ، واعتنقت الإسلام وهي عند زوجها مالك ، وولدت منه ابنها أنَساً ، وكان زوجها غائباً في سفر ، فلما عاد وعلم بإسلامها قال لها : أصبوت ؟ فأجابته : ما صبوت ، ولكني آمنت بهذا الرجل !

وكانت تلقن ابنها أنَس بن مالك الشهادة حتى نطق بها ، وسرت بذلك ، ولكن مالكاً لم يسره فعاتبها قائلاً : لا تفسدي عليّ ابني ! فردت عليه : إني لم أفسده .

ولم يرضَ مالك عن إسلام زوجه أم سليم ، وآذاه منها

أن تلقن ابنهما الشهادة حتى نطق بها ، فهجرها ساخطاً حنقاً إلى الشام ، فقتل ، فلما بلغها نَعيه آثرت ألا تتزوج ، ورأت أن تقف نفسها على ولدها تربيه على الإسلام ، وترضعه لبانه مع لبنها ، وعزمت عزماً على ألا تتزوج حتى يفطم ولدها ، وحتى يكون هو نفسه الذي يزوجها .

وحسب أم سليم فخراً أنها كانت من أفضل الصحابيات الجليلات ، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرمها ويخصها بما لم يخص به امرأة ليست من أهله ، ثم إنها أم أنس ابن مالك الصحابي العظيم الذي شرفه الله بأن كان خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأم الصحابي الجليل عبد الله بن أبي طلحة .

ومن مفاخرها أنها المرأة الوحيدة التي كان صداقها الإسلام ، فقد خطبها أبو طلحة زيد بن سهل بن الأسود بن حرام ، ولم يكن حينما خطبها مسلماً ، بل كان على الشرك ، وأحبت أن تهدي خاطبها إلى الإسلام ، فأفهمته ألا سبيل لمشرك إلى مسلمة ، وذكرت له أنه يعبد حجراً لا يضر ولا ينفع ، فإن كان صادقاً في خِطْبتها فليؤمن بما آمنت به ، وإيمانه بدينها هو صداقها الذي تطلب .

ولم يتسرع أبو طلحة في الجواب ، بل استمهلها ، وفكر في الأمر ملياً ، أيترك دين آبائه وأجداده من أجل امرأة ؟!

إن النساء كثير ، ففي غير أم سليم بلوغ مأربه ، إذا كان القصد امرأة يبني عليها ، ولكن ليس الأمر وقفاً على امرأة ، بل هو أعظم ، إنه العقيدة ، ولن يترك عقيدته من أجل الجسد .

ووازن أبو طلحة بين الدين الجديد الذي عرضته أم سليم عليه ودينه الموروث ، وانتهى من التأمل والتفكير والموازنة إلى الإعجاب بالإسلام ومعتنقيه المخلصين له كل الإخلاص ، وانتهى به الاعجاب إلى الايمان بالحق ، فعاد إلى أم سليم وهو سعيد بقراره .

عاد اليها راضياً مسروراً ، فقد شرح الله صدره للإسلام ، واعتنقه عن رضا وطواعية ، ورأى من الخير له أن يجتمع بمن هدته إلى الخير كله ، وأن يجعلها شريكة حياته .

وإذا كانت خطبته الأولى رغبة منه في امرأة ذات خلق كريم فهو متشبث بها لأن من خطبها هي سبب هدايته ، وهو حريص على أن يتزوج بالمرأة التي عمرت قلبه بالايمان ، وازداد حبه إياها ، وعرض عليها ما عزم عليه ، فرضيت وقبلت ، وتزوجته ، وكان صداقه إياها الإسلام ، وبذلك كانت أول امرأة في الإسلام يكون الإسلام مهرها ، وما أعظمه من مهر .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقدر أم سليم ويخصها هي وأختها أم حرام بما لم يخص به أحداً من النساء غيرهما من غير أهل بيته ، فهو صلى الله عليه وسلم لا يدخل بيت أحد بعد أزواجه وبناته إلا بيت أم سليم وأختها ، وكان بيتهما واحداً .

زار رسول الله أم سليم ذات مرة ، ونام بدارها ، وعرق صلى الله عليه وسلم ، فأخذت تمسح عرقه وتحتفظ به ، فصحا رسول الله وقال لها : «ماذا تصنعين» ؟ فأجابته : آخذ هذا للبركة التي تخرج منك !..

وذات مرة دخل الرسول صلى الله عليه وسلم بيت أم سليم

فرأى قربة معلّقة ، فشرب من فيها ، وهو قائم ، فجاءت أم سليم إلى فوهة القربة وقطعتها واحتفظت بها للبركة .

كان رسول الله صلى الله عليه سلم يتردد عليها في بيتها إكراماً لها ، لأن أخاها وأباها قُتِلا معه ، ولأن ابنها أنَساً خادمه الخاص ، ولأنها من السابقات إلى الإسلام ، ولأنها من المجاهدات الباذلات أنفسهن لله ولرسوله في ميدان الجهاد المقدس .

وعن أنَس رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على أم سليم فأتته بتمر وسمن فقال : « أعيدوا سمنكم في سقائكم ، وتمركم في وعائكم فإني صائم » . ثم قام في ناحية البيت فصلى صلاة غير مكتوبة ، فدعا لأم سليم ولأهل بيتها ، فقالت أم سليم : يا رسول الله ، إن لي خُوَيْصَةَ قال : « ما هي » ؟ قالت : خادمك أنَس ، فما ترك رسول الله خير آخرة ولا دنيا إلا دعا لي به ، ثم قال : « اللهم ارزقه مالاً وولداً وبارك » ، فإني لمن أكثر الأنصار مالاً .

وكانت أم سليم رضي الله عنها لا تحصل على نفيس إلا أهدت إلى رسول الله ، فيتقبل منها هديتها بقبول حسن .

وأم سليم ممن بشرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة . فقد روى أنَس ان رسول الله قال : « دخلت الجنة ، فسمعت خشفة بين يديّ ، فإذا أنا بالغميصاء بنت ملحان » .

وهي من المجاهدات العظيات ذوات الشجاعــة والصبر والإقدام ، ولم يمنعها أنها امرأة من الجهاد ، فقد خرجت مع المسلمين في غزوة أحُد ، وزجّت بنفسها في المعركة تداوي الجرحى ، وتسقي العطشى ، لا تبالي بنبال المشركين وسهامهم وقوّتهم ، بل قذفت بنفسها إلى المعمعة تذود عن دين الله وعن

رسوله الكريم ، وتفديه بنفسها .

وبلغ بها الإيمان والشجاعة أنها كانت حاملاً بابنها عبد الله من أبي طلحة ، ولم يمنعها الحمل عن مشاركة المسلمين جهادهم ، فخرجت معهم إلى حنين ، وكانت مع زوجها أبي طلحة الذي سره أن تكون زوجه المؤمنة على هذا القدر العظيم من الايمان والاقدام والجرأة والشجاعة والتضحية ، فتخرج إلى الحرب وهي حامل .

وكانت أم سليم وزوجها بين يدي رسول الله ، يفديانه ، ويذودان عنه ، وقال زوجها لرسول الله : يا رسول الله ، هذه أم سليم معها خنجر ! فقالت : يا رسول الله ، أتخذه إن دنا مني أحد من المشركين بقرت به بطنه .

فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : « يا أم سليم إن الله قد كفى وأحسن » .

أُرَيْنِبُ بِنْتُ اِسْحَق

كانت رائعة الحسن ، فتانة ، اجتمع لها كل مزايا المرأة ، جمال يسبي ، وخلق يرضي ، وأمانة ، وفضل ، وكمال ، وكانت سعيدة كل السعادة في ظل زوجها ، وكان زوجها يشعر كأنه في جنة هما بها آدم وحواء قبل الخطيئة ، ولكن استزلت الدنيا الرجل وفتنه جاه السلطة ومصاهرة الخليفة فخسر زوجه الطيبة الجميلة ، وخرجا من جنتهما ليصلى بنار الجحيم التي أوقدتها خيانة الرجل المسكين .

انها ارينب بنت إسحاق ، ذات الحسب والنسب ، والجاه والرفعة والمال ، تزوجها عبد الله بن سلام القرشي ، وعاشا عيشة رضية ، تظللهما النعمة والرضا والحب ، وكان عبد الله سعيداً بزوجه ، وكانت زوجه وكأنها في حلم جميل بقربه .

لكن عينا يزيد بن معاوية كانتا تتقدان حسداً على النعيم الذي يعيش فيه الزوجان ، وبرح به هوى ارينب ، ولكن أي سبيل يسلك اليها وهي في دار رجل آخر ؟

وكيف يحل هذا الرباط المقدس ؟

وغرق في همومه وأحزانه ، ولما لم يطق الصبر أفضى بذات نفسه لوالده معاوية بن سفيان ، فوعده بأنه سيعمل على التفريق

بينها وبين زوجها وتكون له خالصة من دون الناس !

وكتب معاوية كتاباً إلى عبد الله بن سلام يستقدمه ، وكان يعمل له بالعراق ، فودع زوجه التي حزنت على فراقه ، وقدم إلى الشام تتنازعه أحاسيس مختلفة ، ألم فراق زوجه ، ولذة غامضة من دعوة معاوية اياه ، ونزل بدمشق في منزل حسن اختاره له معاوية ، وشعر انه مقبل على ما يزيده سعادة ، وركب من التفاؤل خير مركب .

وكان بدمشق أبو الدرداء وأبو هريرة صاحبا رسول الله صلى الله عليه فطلبهما معاوية وقال لهما : *ان لي ابنة بلغت واريد أن أزوجها* رجلاً أرضى دينه وشرفه ومروءته وامانته وصلاحه وأرى عبد الله بن سلام كفوءاً . فامضيا اليه واذكرا له ما سمعتما مني ، وجعلت لابنتي الشورى .

فقال أبو الدرداء رضي الله عنه : ان أولى الناس برعاية انعم الله وشكرها فيما خصه الله دوننا أنت صاحب رسول الله .

فقال معاوية : واذكرا له هذا ، وجعلت لابنتي الشورى وأرجو ألا تخرج عن رأي أراه .

ومضيا إلى عبد الله بن سلام وأخبراه ففرح وابتهج ، ورجاهما أن يمضيا إلى معاوية يخطبان له ، فعادا اليه برضا ابن سلام ، فقال لهما معاوية : امضيا إلى ابنتي وتحدثا اليها في هذا الأمر ، وكان معاوية قد اتفق مع ابنته ، فمضيا اليها وذكرا لها اختيار معاوية ورأيه وخطبة ابن سلام ، فقالت : عبد الله بن سلام كفء كريم وقريب حميم ، غير ان تحته ارينب بنت اسحاق ، وأخشى أن يدخلني ما يدخل النساء من

الغيرة فآتي ما يسخط الله فيعذبني فأفارق الرجاء واستشعر الأذى ، وما أنا بفاعلة حتى يفارقها .

وذهبا إلى ابن سلام وذكرا له ما قالت ابنة معاوية ، فابتهج وأشهدهما على طلاق زوجه ارينب ، وبعثها خاطبين ، فأتيا معاوية وأخبراه بطلاق ابن سلام زوجه فقال : ما استحسن طلاقه زوجه ، ولا أحببته منه ، ولو صبر ولم يتعجل لكان في ذلك خير له ، ولكن لا خيرة لما تجري به الأقدار ، وما سبق في علم الله كائن . فانصرفا في عافية ثم تعودان الينا .

وعاد الصحابيان الجليلان إلى معاوية فدفعهما إلى ابنته فأخبراها بطلاق ابن سلام زوجه تحقيقاً لرغبتها وطلباً لمسرتها ، وذكرا لها فضله ومروءته وشرفه فقالت : لقد جف القلم بما هو كائن ، وما يقترب اثنان إلا بقضاء وقدر . واني مفكرة في أمري وسائلة ومستخيرة فيه . وان كنت أعلم أنه لا خيرة لأحد فيما هو صائر اليه ، واني سأعلمكما بما يرينيه الله في أمره ولا حول ولا قوة إلا بالله . فقالا : وفقك الله لما فيه الخير . وخار لك ما يرضي . وانصرفا إلى ابن سلام وأعلماه فتمثل قائلاً :

فان يك صدر هذا اليوم ولى
فان غداً للناظرين قريب

وانتظر عبد الله بن سلام أياماً ثم طلب إلى ابن الدرداء وأبي هريرة أن يفرغا من أمره ، فذهبا إلى ابنة معاوية فاعتذرت بأنها سألت عنه فاختلف الناس فيه ، وأول ما كرهت الاختلاف ، وانها استخارت الله وانتهت إلى انه غير صالح لها .

وأدرك ابن سلام انه ذهب فريسة الخداع ، واشتد عليه الهم ، واستبد به الغم ، وتحدث الناس بما كان كما تحدث هو نفسه ، حتّى لم يبق أحد بالشام إلا علم بقصته .

وبعد أن انتهت عدة أُرينب بعث معاوية ابا الدرداء إلى العراق وكان بها الحسين بن علي رضي الله عنهما ليخطب ارينب لابنه يزيد ، ورأى أن يفتتح عمله بالعراق بالسلام على ابن بنت رسول الله وسيد شباب أهل الجنة ، فمضى اليه واستقبله الحسين استقبالاً حافلاً ، وأخبره أبو الدرداء خبره فقال له الحسين : اذكرني عندها ، فلي رغبة فيها ، وما أخرني إلا اختيار مثلك .

وذهب أبو الدرداء إلى ارينب وخطبها للحسين بن علي وليزيد بن معاوية ، وذكر كلاً منهما بما يعلم ، فقالت أرينب: يا أبا الدرداء ، لو ان هذا الأمر جاءني وأنت غائب عني اشخصت فيه الرسل اليك واتبعت رأيك فيه ولم أقعه دونك على بعد مكانك ونأي دارك ، فأما وأنت الرسول فأنا مفوضة اليك أمري بعد الله ، وبرئت منه اليك وجعلته في يدك . فاختر لي ارضاهما لديك ، والله شهيد عليك ، واقض فيه قضاء ذي التحري المتقي ، ولا يصدنك عن ذلك هوى ، فليس أمرهما عليك خفياً .

فأحرج ابو الدرداء وقال لها : إنما علي اعلامك وعليك الاختيار !.. .

ولكنها قالت له : عفا الله عنك ، إنما أنا ابنة أخيك ، ولا يمنعك رهبة أحد من قول الحق فيما طوقتك ، وقد وجب عليكً أداء الامانة فيما حملتك ، والله خير من روعي وخيف ،

انه بنا لطيف خبير .

وازداد حرج أبي الدرداء ، ولكنه قال : يا بنية ، ابن بنت رسول الله أحب إلي وأرضاهما عندي ، ورأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم واضعاً شفتيه على شفتيّ الحسين ، فضعي شفتيك حيث وضع رسول الله !

قالت : قد اخترته ورضيته .

وتزوجها الحسين بن علي ، وساق لها مهراً عظيماً .

وعاد أبو الدرداء إلى معاوية وقد سبقه الخبر اليه فلامه وعنفه ، وقال : من يرسل ذا بلاهة وعمى يركب في أمره خلاف ما يهوى .

وعلم ابن سلام بما كان ففرح كثيراً ، فقد أخفق معاوية ، وطارت ارينب من يزيد إلى من لا قدرة لمعاوية ويزيد عليه وساء حال ابن سلام في الشام ، وقطع عنه معاوية كل أرزاقه فعاد إلى العراق حزيناً ، وان كان سروره عظيماً بما أمضاه الله فقد مضت أُرينب إلى خير من تظل الغبراء في زمنه ، إلى ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وذكر ابن سلام انه أودع أُرينب دراً كان أغلى ماله ، ومضى إلى الحسين رضي الله عنه يرجوه أن ترد ارينب اليه ما اودع لديها ، فذهب اليها الحسين وأخبرها بمقدم ابن سلام وثنائه عليها وطلب اليها أن ترد اليه وديعته ، وقال لابن سلام : ادخل وتسلم وديعتك منها .

فلما رأته ورآها بكيا بكاء شديداً على ما كان بينهما من ماض جميل ، فدخل الحسين عليهما وقال : اشهد الله انها

طالق ثلاثاً ، وما تزوجتها رغبة في مالها أو جمالها ، ولكني أردت استخلاصها واحلالها لبعلها .

وأرادت أن ترد إلى الحسين أمواله الكثيرة التي ساقها اليها مهراً ، فأبى ، وقال : ما عند الله خير وأبقى !

وعادت ارينب إلى عبد الله بن سلام ، وعادت إلى بيتهما السعادة التي هدمها الهوى ، وأعاد بناءها الخير والهدى .

* نشرت في جريدة « عكاظ » سنة ١٣٨٣ ﻫ (١٩٦٣ م) .

الفهرس

للمؤلفة

كتب تحت الطبع

●

١ ــ قصص وحكايات

٢ ــ ذكريات

٣ ــ نساء صنعن التاريخ (الجزء الثاني)

٤ ــ رفقاً بالقوارير (دراسة اسلامية للمرأة)

هذا الكتاب

« هذه سِيَرُ بعض النساء المسلمات ، اللاتي شاركن في صنع تاريخ الإسلام في خير عهوده ، وكن نماذج للمرأة الفاضلة الصالحة . وان نشرها في كتاب يتيح لنساء هذا العصر الوقوف على تاريخ أمهاتهن اللاتي شاركن الرجال في بناء صرح الإسلام وحضارته العظيمة ، وفي نشر دعوته الإنسانية ، وتضلّعن من علومه ، وكنّ نماذج في حياتهن الخاصة والعامة .

فجدير بنا أن نعنى بتاريخ النساء اللاتي بنيْنَ صرح الإسلام وصنعن تاريخه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين ، وصحابته الغر الميامين ، فكنّ أفضل نساء الأرض في الفضيلة والعفة والعقل والذكاء ، وفي كل الصفات الكريمة والأخلاق الفاضلة ، وفي العلوم المختلفة ، وفي الحروب .

إن من أعظم مقومات الحياة الإنسانية صلاح المرأة ، فإذا صلحت صلح المجتمع ، واستقامت الحياة بما فيها ومن فيها ، وإذا فسدت تفسد الحياة ، ولا يمكن صلاح مجتمع لا تشارك المرأة الصالحة الرجل الصالح في بنائه وحراسته ، كما لا يمكن نجاح مجتمع تتخلف المرأة فيه .

هذا ما هدفت اليه حين وضعت هذا الكتاب ، فأرجو من الله أن ينفع بما كتبت وأكتب ، والله الموفق لما فيه الخير والسداد » .

« من مقدمة الكتاب »

الثمن ٣٠٠ ق. ل. أو ما يعادلها

مطابع دار العلم للملايين
بيروت